

# أسباب رد الحق الواضح

تأليف

د. مشاري بن سعيد المطرفي

ذكره في العقيدة والفلسفة الإسلامية



استبجك  
ردي الحفم الواضح

الطبعة الأولى  
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م  
جميع الحقوق محفوظة



الكويت- الجهراء- القيصريه القديمه- مجمع كابيتول مول- السرداب- محل ٢٤

Website : [www.daradahriah.com](http://www.daradahriah.com)

E-mail : [daradahriah@gmail.com](mailto:daradahriah@gmail.com)

( +965 ) 51155398 - ( +965 ) 99627333

## الموزعون المعتمدون

مكتبة الميمنة المدنية  
( المدينة المنورة )  
[daralmimna@gmail.com](mailto:daralmimna@gmail.com)  
(+966) 558343947

دار التدمرية للنشر والتوزيع  
( الرياض )  
[tadmoria@hotmail.com](mailto:tadmoria@hotmail.com)  
(+966) 114925192

دار أندلسية للنشر والتوزيع  
( الكويت )  
[darandalusia@hotmail.com](mailto:darandalusia@hotmail.com)  
(+965) 94747176

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع  
( مصر الجديدة )  
[mofakroun@gmail.com](mailto:mofakroun@gmail.com)  
(+2) 01110117447

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع  
( مكة المكرمة )  
[alasaki2000@hotmail.com](mailto:alasaki2000@hotmail.com)  
(+966) 125273037

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع  
( جدة )  
[hassan\\_hyge@hotmail.com](mailto:hassan_hyge@hotmail.com)  
(+966) 504395716

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## إهداء

إلى العلماء والدعاة والمصلحين والمفكرين الذين  
حملوا همَّ الإسلام وهمَّ أمة الإسلام..

إلى الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه  
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا  
تبديلاً..

إلى الرجال الذين صدعوا بالحق فسجنوا وعذبوا  
وقتلوا..



## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذا كتاب «أسباب رد الحق الواضح..» جمعت فيه تسعة أسباب تجعل من صاحبها يردُّ الحق الواضح الثابت بالكتاب والسُّنَّة، وهي الجهل والحسد والكبر والهوى والظلم والتقليد والمداهنة والتعصُّب وتقديم العقل على النقل.

كتبته ناصحاً ومحذراً ومنبها للمسلمين من الوقوع فيها، بعدما انتشر بين صفوف عامة المسلمين من يردُّ الحق الواضح البيِّن الذي لامرية فيه ولا غبش، الثابت بكتاب الله وبسُنَّة نبيه ﷺ، إما لجهله وقلة علمه، وإما لحسده لصاحب الحق، وإما لكبره الذي يمنعه عن العدول عن رأيه وقبول الحق، وإما لاتباعه للهوى الذي يُعميه عن راية طريق الحق والصواب، وإما بسبب الظلم بحيث يرد الحق بسبب بغضه لقاتله، وإما بسبب تقليده لغيره من علماء السوء أو الجهلة، وإما بسبب مداهنته للطواغيت والظلمة، وإما بسبب تعصُّبه لمذهب من المذاهب، أو لإمام من الأئمة، بحيث يحصر الحق فيه، وإما بسبب تقديمه العقل على النقل الذي يجعله يردُّ نصوص الكتاب والسُّنَّة بدعوى مخالفتها للعقل.

أسأل الله بأسمائه الحسنی، وصفاته العلاء، قبول هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول، وينفع به المسلمين.

د. مشاري سعيد المطرفي

الكويت. مدينة سعد العبدالله

للتواصل واتساب: ٠٠٩٦٥٦٦٧٨٣٧١٦



## مقدمة

### بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

أما بعد:

فإن الله سبحانه هو الحق، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠١.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٠٧ - ١٧.

(٤) سورة الحج، آية: ٦.

ودينه حق، ورسله حق، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ﴿١﴾.

وقد أنزل الله الكتب وأرسل الرسل بالحق، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٢).

وأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه جاءهم بالحق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٣).

وقد قام الرسول ﷺ بالحق، ودعا الناس إليه، ورغبهم فيه، وحثهم عليه، وحذرهم من الباطل، ونهاهم عنه، ولم يمت ﷺ حتى أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٤).

وبلغ ﷺ الحق للناس أجمعين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، وما من طائر يطير بجناحيه إلا وقد ذكر لهم منه علماً، وهدى الله به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥) ﴿٦﴾.

(١) سورة التوبة، آية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٣) سورة يونس، آية: ١٠٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٦) «معارج القبول»، لحافظ حكيمي (١/٥٧)..

وبين ﷺ أن من أعرض عن الحق وردّه، فإن العار والشنار والباطل والضلال مصيره، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْ تَضُرُّوْنَ﴾ (٣٢) (١).

والحق واحد لا يتعدّد، لأن مصدره واحد، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَمْ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) (٣)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) (٤).

وهو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) (٥)، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠) (٦)، وقال النبي ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» (٧).

والحق تام كامل لا نقص فيه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٨)، وقال ﷺ: «إنه لم يكن

(١) سورة يونس، آية: ٣٢.

(٢) سورة الكهف، آية: ٢٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٠.

(٤) سورة الرعد، آية: ١.

(٥) سورة النمل، آية: ٧٩.

(٦) سورة الأحقاف، آية: ٣٠.

(٧) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٤٥).

(٨) سورة المائدة، آية: ٣.

نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»<sup>(١)</sup>.

وهو قوي غالب، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾<sup>(١٨)</sup>، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾<sup>(٨١)</sup>،<sup>(٣)</sup>

وهو راسخ ثابت سالم من التناقض أو الاضطراب أو الاختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٨٢)</sup>،<sup>(٤)</sup>

وهو الحجة الفاصلة عند النزاع والاختلاف، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾<sup>(٥٧)</sup>، وهو الحجة الدامغة، والدليل القاطع، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١٤٩)</sup>، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(١١١)</sup>،<sup>(٧)</sup>

وقد أخذ سبحانه وتعالى العهد على خلقه وهم في ظهر أبيهم الأول

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٤) سورة النساء، آية: ٨٢.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٥٧.

(٦) سورة الأنعام، آية: ١٤٩.

(٧) سورة البقرة، آية: ١١١.

آدم - عليه السلام - على قبول الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾<sup>(١)</sup>.

وفطر النفوس وجبلها على قبوله، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴿٢﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

قال المعلمي: «نص الله تبارك وتعالى في كتابه على أنه خلق الناس على الهيئة التي ترشحهم لمعرفة الحق»<sup>(٣)</sup>.

وجاء في الحديث عنه ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»<sup>(٤)</sup>.

قال ابن رجب: «الإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق»<sup>(٥)</sup>، فكل الناس لديهم ما يقتضي معرفة الحق، ومحبتهم له، قال عمر بن عبد العزيز: «عليك بدين الأعراب والصبيان في الكتاب، وعليك بما فطرهم الله عليه فإن الله فطر عباده على الحق»<sup>(٦)</sup>.

وقال ابن القيم: «إن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٣) «القائد إلى تصحيح العقائد»، للمعلمي، (ص: ٤٠).

(٤) متفق عليه.

(٥) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (٢/ ٣٩).

(٦) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٥/ ٢٦٠).

والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره»<sup>(١)</sup>.

وقد بعث الله الرسل بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها، وأما أعداء الرسل فيريدون أن يغيروا فطرة الله<sup>(٢)</sup>، كما يدل على ذلك قوله ﷺ في الحديث القدسي: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»<sup>(٣)</sup>.

ورد الحق الواضح البين، الثابت بكتاب الله وبسنة نبيه ﷺ، من كبائر الذنوب التي يخشى على صاحبها أن يتليه الله بالمضلات قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

ورد الحق والتلبيس على الناس فيه خيانة لله ولرسوله ﷺ وتضليل للناس، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

ورد الحق أو كتمانها والتلبيس على الناس من صفات اليهود التي ذمها

(١) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٣/ ٤٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٥/ ٢٦٠).

(٣) رواه مسلم.

(٤) سورة النور، آية: ٦٣.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

الله سبحانه وتعالى وحذر منها في كتابه العزيز حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُّوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ (٤٢) (١).

والأسباب التي تجعل الإنسان يرد الحق الواضح البين، الثابت بكتاب الله وبسنة نبيه ﷺ، كثيرة ومتعددة، وقد ذكرت في هذا الكتاب أبرز وأغلب هذه الأسباب.

وقد قسّمت هذه الدراسة إلى تسعة مباحث:

- المبحث الأول: الجهل.
- المبحث الثاني: الهوى.
- المبحث الثالث: الحسد.
- المبحث الرابع: الكبر.
- المبحث الخامس: الظلم.
- المبحث السادس: المداهنة.
- المبحث السابع: التعصّب.
- المبحث الثامن: التقليد.
- المبحث التاسع: تقديم العقل على النقل.

## المبحث الأول

### الجهل

#### تعريف الجهل:

الجهل لغة: خلاف العلم: وهو مصدر قولهم: جهل يجهل، وهو مأخوذ من مادة «ج ه ل» التي تدل على معنيين، يقول ابن فارس: «الجيم والهاء واللام» أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة<sup>(١)</sup>.

#### الجهل اصطلاحاً:

هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه<sup>(٢)</sup>.

وقيل هو: عدم العلم عمّا شأنه أن يكون معلوماً<sup>(٣)</sup>.

#### أقسام الجهل:

قسّم العلماء الجهل عدة تقسيمات بناء على عدة اعتبارات.

فقسّمه ابن القيم إلى قسمين<sup>(٤)</sup>:

١ - بسيط: وهو عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبّس بضده.

(١) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (١/٤٨٩).

(٢) «التعريفات»، للجرجاني، (ص: ٨٠).

(٣) «الأشبه والنظائر»، لابن نجيم، (ص: ٢٦١).

(٤) «بدائع الفوائد»، لابن القيم (٤/٢٠٩).

٢- ومركب: وهو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة.

والقسم الأول هو الذي يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه.

وبيان ذلك: أن الجهل البسيط: عدم العلم مطلقاً، أي انتفاء إدراك الشيء المعلوم كلية، كأن يسأل عن حكم المرأة الحائض هل تصلي وتصوم أم لا مثلاً؟

فيقول: لا أعلم، فهذا جاهل وجهله بسيط.

والجهل المركب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، أي يتصور الشيء المعلوم ويعتقده على غير هيئته، فكان مركباً من أمرين:

١- عدم العلم بالشيء وانتفاء إدراكه له، وهاهنا يوافق صاحب الجهل البسيط.

٢- أن يعتقد صاحب هذا الجهل ما هو مخالف للواقع غير مطابق لما هو في الخارج اعتقاداً جازماً، فلو سئل عن المرأة الحائض مثلاً؟ فيقول تصلي وتصوم وعليها القضاء، فهو لا يعلم ومع ذلك يعتقد الشيء على خلاف الواقع.

### داء الجهل:

الجهل صفة ملازمة لأكثر النفوس. وهو داء عضال، وفيروس قاتل للإنسان في عقله، وقلبه، وجوارحه، ورزقه، وصحته، وعلاقته بربه، وعلاقته بغيره، وعلاقته بالكون كله، بل هو أساس الشر وجماعه، قال

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وجماع الشر الجهل والظلم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) ﴿١﴾» (٢).

وهو شجرة سيئة تثمر كل اعتقاد وقول وفعل قبيح.

يقول ابن القيم: «أما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدّة والفحش والبذاء والشح والبخل، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم، والفخر والخيلاء والعُجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب، وإخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجاؤه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها، فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضباً لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه، ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طريق الغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وواد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءات

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/٣٤٨) ..

الجوار وركوب مراكب الخزي والعار... والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل»<sup>(١)</sup>.

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة بدمّ الجهل والتحذير منه، فقد بينّ تعالى أن الجهل هو السبب في إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين، وأن الناس لجهلهم كذبوا بالرسول وبما جاؤوا به من الحق، يقول تعالى مخبراً عن قول نوح لقومه: ﴿وَيَقُولُوا لَوْلَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَنَّا نَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ آلِهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَنُكَفِّرَنَّ أَزْوَاجَهُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأخبر النبي ﷺ أن ظهور الجهل وانتشاره يعدّ من علامات قرب الساعة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشرط الساعة: أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل»<sup>(٣)</sup>.

وعن شقيق قال: كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويُرفع العلم»<sup>(٤)</sup>.

وهذا الجهل الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ أنه سيقع في الأمة هو الجهل بعلوم الشريعة.

ولذلك نجد أن الصحابة -رضوان الله عليهم- لما علموا خطورة

(١) «مفتاح دار السعادة»، لابن القيم، (ص: ١١٦).

(٢) سورة هود، آية: ٢٩.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

الجهل بعلوم الشريعة حرصوا على تعليم الناس أمور دينهم، وعلى تلقين أبنائهم أصول الاعتقاد وتوصيتهم بالتمسك بالسُّنَّة، فهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول موصياً بتعلم العلم: «عليك بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله أو قال أصحابه<sup>(١)</sup> إذ الجهل يقود أربابه إلى اعتناق الباطل، ورد الحق ومعاداته».

والناظر لأهل الباطل يجدهم بعيدين عن استيعاب علوم الشريعة، جاهلين بفهم معانيها، ومعرفة قواعدها ومقاصدها، معرضين عن تتبع سُنَّة رسول الله ﷺ وسُنَّة الصحابة -رضي الله عنهم-، يقول ابن عبد البر: «أهل البدع أجمع اضربوا عن السُّنَّة، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السُّنَّة، فضلوا وأضلوا»<sup>(٢)</sup>.

### وللإنسان مع الجهل أربعة منازل:

**الأول:** من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً، فأمره في إرشاده سهل إذا كان له طبع سليم، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلتق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النظري: غفل، وباعتبار العلم العملي: غمر، ويقال له: سليم الصدر.

**والثاني:** معتقد لرأي فاسد، لكنه لم ينشأ عليه، ولم يترب به، واستنزه عنه سهل، وإن كان أصعب من الأول، فإنه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاو وضال.

(١) «شرح اعتقاد أهل السُّنَّة»، لللالكائي (١/٧٨)، و«الإبانة»، لابن بطة (١/٣٣٣)..

(٢) «جامع بيان العلم وفضله»، للقرطبي (٢/١١٩٩).

والثالث: معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه، وتراءت له صحته، فركن إليه لجهله وضعف نحيزته، ممن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) فهذا ذو داء أعيا الأطباء، فكما أن كل داء له دواء، فلا سبيل إلى تنبيهه وتهذيبه.

والرابع: معتقد اعتقاداً فاسداً عُرف فساده، أو تمكن من معرفته، لكنه اكتسب دنية لرأسه، وكرسياً لرئاسته، فهو يحامي عليها، فيجادل بالباطل ليدحض به الحق، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق، ويقال له: فاسق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢) فنبه تعالى أنهم ينكرون ما يقولونه لمعرفة بطلانه، لكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال إبليس فيما دعا إليه من السجود لآدم عليه السلام (٣).

فمن كان جهله للحق بعد علمه به، ومعرفته له، فمن الصعب إقناعه، لأن رفضه للحق ناشئ إما عن حسد، أو جحود، أو عناد وكبر، أو مخادعة لنفسه، ومغالطة لغيره، أو لأي حظ من حظوظ النفس.

وهذا ما أكد عليه ابن القيم بقوله: «أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به النبي ﷺ والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٥.

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، للراغب، (ص: ١٦٥ - ١٦٦).

فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (٢٣) ﴿١﴾، وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨) ﴿٢﴾ فهم لا اعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائئ السراب الذي يحسبه الظمان ﴿مَاءٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) ﴿٣﴾، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يكون صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرم كما هو الحال فيمن أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه إياه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثوراً، إذ لم يكن خالصاً لوجهه ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباء منثوراً، فصارت أعماله وعلومه (هكذا).

(١) سورة النجم، آية: ٢٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٨.

(٣) سورة النور، آية: ٣٩.

والقسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى، كظلمات عديدة وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسوله -صلوات الله وسلامه عليهم-، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جدّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه

ووافقها قطع من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات<sup>(١)</sup>.

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية»، لابن القيم، (ص: ٥٥ - ٥٨) باختصار.

## أسباب الجهل المؤدي لرد الحق:

الذي أوقع ويوقع أهل الباطل في رد الحق عدة أمور، منها:

أولاً: عدم فهم الدليل ووضعه في غير موضعه، وقد وصف رسول الله ﷺ الخوارج بأنهم «يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقهم»<sup>(١)</sup>.

وكانت البدع الأولى مثل: «بدعة الخوارج» إنما هي من سوء فهمهم للقرآن... «لكن فهموا منه ما لم يدل عليه»<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: المنازعة في المسألة قبل استكمال العلم وإحكامه وجمع حواشيه وأطرافه، فيظن المسلم أنه بقراءته للقرآن قد استكمل العلم فيذهب للمنازعة وإنكار ما يجهره، فلقد أنكرت أم يعقوب على عبد الله بن مسعود لعنه للواشحات والمتمصصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، قالت له: ما هذا؟ قال: «ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب الله» قالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>(٣)</sup> (٤).

لذلك أرشد النبي ﷺ إلى ما يفعله المسلم عند الجهل ببعض العلم

(١) متفق عليه.

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣٠ / ١٣).

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

فقال: «ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»<sup>(١)</sup> ولم يقل اعملوا برأيكم، أو ردوا ما جهلتم.

ثالثاً: إنكار ما يجهله وما غاب عن علمه، خاصة إذا كان مع المخالف، فيقع منه التكذيب ببعض الحق، ومن الجهل أن يرد بعض الحق الذي يكون مع مخالفه إذا كان مختلطاً بالباطل فيؤدي هذا الرد إلى الاختلاف والنزاع<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: الانشغال والاهتمام بالعلوم الدنيوية التي يتحصّل المسلم بها على وظيفة ودخل ويكون انشغاله على حساب تعلمه أمور دينه الأساسية، فكثيراً ما نجد من المسلمين من بلغ مراتب عالية في العلوم الدنيوية ولكنه قليل العلم في أمور دينه حتى لا يكاد يفرق بين أركان الصلاة وواجباتها فضلاً عن مستحباتها، فيكون بذلك لقمة سائغة وبيئة خصبة لتقبل البدع ونشرها، إذ لا حصانة لديه من العلم الشرعي الصحيح.

خامساً: تجزئة الشريعة والأخذ ببعض النصوص بدون بعض أو الزعم بالاستغناء بالقرآن الكريم عن السنّة النبوية، يقول الشاطبي: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد والجهل بمقاصد الشرع وعدم ضم أطرافه بعضها لبضع فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على خاصها...» إلى أن قال: «فشأن الراسخين

(١) رواه أحمد: ٣٠٥ / ١١، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم»، لابن تيمية (١ / ١٥١).

تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاء الإنسان...  
وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما، أي دليل كان عفواً وأخذاً، وإن كان  
ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي فكأن العضو الواحد لا يعطي في مفهوم  
أحكام الشريعة حكماً حقيقياً فمتبعه متبع متشابه ولا يتبعه إلا من في قلبه  
زيغ كما شهد الله به»<sup>(١)</sup>.

(١) «الاعتصام»، للشاطبي، (ص: ٣١١).

## المبحث الثاني

### الهوى

#### تعريف الهوى:

الهوى لغة: الخلو والسقوط: قال ابن فارس: «الهاء والواو والياء»: أصل صحيح يدل على: خلو وسقوط<sup>(١)</sup>.

الهوى اصطلاحاً: هو: «ميل النفس إلى الشهوة»<sup>(٢)</sup>. وقيل هو: «ميل الطبع إلى ما يلائمه»<sup>(٣)</sup>. وقيل هو: «ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»<sup>(٤)</sup>.

#### حكم اتباع الهوى:

اتباع الهوى محرّم، كما نصّ على ذلك عامة أهل العلم<sup>(٥)</sup>، ومن نصّ على ذلك الإمام الشاطبي، مستدلاً على ذلك بأدلة كثيرة، منها:

أولاً: أنه قد ثبت بالاستقراء أن الشريعة مضادة للهوى من كل وجه، وأن اتباع الهوى ضد اتباع الشريعة، وأن وضع الشريعة على أن تكون أهواء النفس تابعة لمقصود الشارع فيها<sup>(٦)</sup>، وأن القصد الشرعي من وضع

(١) «مقاييس اللغة، لابن فارس (١٥/٦).

(٢) «المفردات»، للراغب، (ص: ٨٤٩).

(٣) «ذم الهوى»، لابن الجوزي، (ص: ١٢).

(٤) «التعريفات»، للجرجاني، (ص: ٢٥٧).

(٥) «روضة الناظر»، لابن قدامة (١/٣٣٨).

(٦) «الموافقات»، للشاطبي (١/٥١٠ - ٥١٦).

الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً كما أنه عبد لله اضطراراً<sup>(١)</sup>.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> فمن نازعه هواه فإن الواجب عليه الرجوع إلى الأدلة الشرعية والبعد عن اتباع اختياريه وشهوته، وهذا ضابط قرآني لا مثيل له، يهدم قضية اتباع الهوى جملة وتفصيلاً<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: أنه قد علم بالتجارب والعادات أن المصالح - دينية وديوية - لا تتحصّل مع قصد الهوى والشهوة، لما يلزم في ذلك من الفساد والإفساد، ولذا اتفق العقلاء على ذم اتباع الهوى والشهوات والاسترسال في تحقيقتها، وقد جاء الشرع بتأييد ذلك وتأكيد، وبهذا يكون قد توارد العقل والنقل على ذم الهوى في الجملة<sup>(٤)</sup>.

رابعاً: أن المصالح الشرعية إنما تثبت على نظر شرعي وقصد رباني، ولم ترع فيها أهواء الناس وشهواتهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾<sup>(٥)</sup><sup>(٦)</sup>، إذ لو كانت المراعاة

(١) «الموافقات»، للشاطبي (٢/٦٣، ٢٨٩، ٥/٧٧).

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) «الموافقات»، للشاطبي (٥/٨١ - ٨٢)، و«إعلام الموقعين»، لابن القيم (١/٣٩ - ٤٠).

(٤) «الموافقات»، للشاطبي (٢/٢٩٢).

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٧١.

(٦) «الموافقات»، للشاطبي (٢/٦٣ - ٦٤، ٢٩٣).

لأغراض الناس، لاستحالة وضع الشريعة على نسق واحد، لكثرة الاختلاف<sup>(١)</sup>.

خامساً: أن اتباع الهوى فيه تعطيل للأوامر الشرعية، وارتكاب للمحظورات الربانية، لأنه مضاد لها، فاتباع الهوى مسقط للتكليف جملة وتفصيلاً<sup>(٢)</sup>.

سادساً: أن اتباع الهوى وإن جاء في الأفعال الشرعية على وجه التبع، إلا أنه قد يهلك صاحبه، ويكون وسيلة لأن يكون اتباعه قصداً وغاية، فقد يتلذذ به صاحبه فيسري في جميع أعماله فيبطلها، لا سيما وأن النفس البشرية ميالة للهوى، مجبولة على قبوله، وقد يجد العاقل لذة العبادة وأنسها، وتضع له العبادة بين الناس موضعاً، فيقصد بعبادته ذلك، فيقع في مهلكة الهوى<sup>(٣)</sup>.

سابعاً: أنه لو كانت الشريعة جاءت بمراعاة الهوى من كل وجه للزم منه محال، إذ أغراض الناس في الأمر الواحد متفاوتة مختلفة، ولو كانت الشريعة متعلقة بالأغراض لما استقرت على وضع واحد، ولجأت مضطربة مختلفة، وهذا باطل، فما يلزم منه باطل أيضاً<sup>(٤)</sup>.

ثامناً: أن اتباع الهوى في الأحكام الشرعية - ولو وقع تبعاً - فإنه

(١) «الموافقات»، للشاطبي (٢/ ٦٥ - ٦٦).

(٢) «الموافقات»، للشاطبي (٢/ ٢٩٨، ٨٣/٥).

(٣) «الموافقات»، للشاطبي (٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٤) «الموافقات»، للشاطبي (٢/ ٦٥ - ٦٦).

وسيلة لأن يجعل العامل ما يقوم به من أعمال شرعية حيلة لتحصيل أغراضه وأهوائه، فيكون كالمرائي يتخذ الأعمال الصالحة سلماً لما في أيدي الناس<sup>(١)</sup>.

### ذم اتباع الهوى؛

اتباع الهوى دلّ على ذمّه العقل والنقل<sup>(٢)</sup>.

وهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً<sup>(٣)</sup>.

والبلاء كله في الهوى<sup>(٤)</sup>.

وهو مركب ذميم يسير بصاحبه في ظلمات الفتن، ومرتع وخيم يقعده في مواطن المحن<sup>(٥)</sup>.

وهو يعمي ويصم صاحبه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر، ولا يطلبه أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه هو، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة

(١) «الموافقات»، للشاطبي (٢/٢٩٩).

(٢) «الموافقات»، للشاطبي (٢/٢٩٢، ٥/٩٦).

(٣) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، (ص: ٢٩).

(٤) «ذم الهوى»، لابن الجوزي، (ص: ٢٤)، قاله بشر الحافي.

(٥) «المدهش»، لابن الجوزي، (ص: ٣٧٥).

الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علم ولا حُسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمداوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم، لا على دين الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

وهو أصل الزيغ عن الصراط المستقيم<sup>(٢)</sup>.

وهو وقوع في المشابه الذي نهى الله عن اتباعه، وبين أنه زيغ عن الحق وابتغاء للفتنة<sup>(٣)</sup>.

وهو وقوع في البدع، ذلك أنها «إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع»<sup>(٤)</sup>.

وأهل البدع سماهم السلف: أهل الأهواء، لأنهم على ضلال، والضلال مستلزم لاتباع الهوى كما أن الهدى لازم لاتباع سبيله<sup>(٥)</sup>.

وأهل الأهواء وقعوا في البدع «لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا

(١) «منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية (٢٥٦/٥).

(٢) «الاعتصام»، للشاطبي (٢/٤٠١، ٤٧٠، ٤٩٩) وما بعدها، و«الموافقات»، للشاطبي (٣/٢١١، ١٦٥/٥).

(٣) «الموافقات»، للشاطبي (٣/٢١٢، ٣١٧، ١٦٥/٥، ٢٢١)، و«الإبانة»، لابن بطة (٢/٥٠١).

(٤) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب: ٢/٣٩٧.

(٥) «جامع المسائل لابن تيمية»، تحقيق/ عزيز شمس (٦/١٤٦).

الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك»<sup>(١)</sup>.

و«جميع المعاصي إنما تنشأ عن تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

### أثر اتباع الهوى في رد الحق:

من آثار الهوى رد الحق، وعدم قبوله، قال علي بن أبي طالب: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق»<sup>(٣)</sup>.

واتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه، البتة، وإذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكير أو بالعظة؟<sup>(٤)</sup>.

واتباع الهوى كذّبت الرسل، وعُصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات<sup>(٥)</sup>.

(١) «الاعتصام»، للشاطبي، (ص: ٦٨٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (٢/ ٣٣٥).

(٣) «فضائل الصحابة»، لأحمد بن حنبل (١/ ٥٣٠)، و«حلية الأولياء»، لأبي نعيم (١/ ٧٦).

(٤) «مدارج السالكين»، لابن القيم (١/ ٤٤٨ - ٤٤٧).

(٥) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (١/ ١٠٦).

وباتباع الهوى رد الكفار رسالة السماء ورفضوا الاستجابة للرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

قال ابن سعدي: «اعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم»<sup>(٢)</sup>.

وقال عبد الرحمن المعلمي: «لم يمنعهم من الإسلام إلا اتباع الهوى»<sup>(٣)</sup>.

وباتباع الهوى رد أهل الأهواء الحق الذي مع مخالفيهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٦)</sup> وَعَايَنَّا نَهْمَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ<sup>(١٧)</sup> ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(١٨)</sup> إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ<sup>(١٩)</sup> هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ<sup>(٢٠)</sup>﴾<sup>(٤)</sup>.

فهذه الآيات وما في معناها: بينت أن أهل الاختلاف المذموم لم يختلفوا لأجل اشتباه الحق بالباطل، وإنما اختلفوا بعد معرفة الحق وظهوره، وأن ما حملهم على ذلك البغي، فإنهم كذبوا بما مع الآخرين

(١) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن»، لابن سعدي، (ص: ٦١٨).

(٣) «القائد إلى تصحيح العقائد»، لعبد الرحمن المعلمي، (ص: ٣٥).

(٤) سورة الجاثية، آية: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

من الحق مع علمهم أنه حق، وصدقوا بما مع أنفسهم من الباطل مع علمهم أنه باطل<sup>(١)</sup>.

وباتباع الهوى أغمض أهل الأهواء أعينهم عن النظر إلى الحق وإن كان أبلج، وعن سماع الحق وإن كان مدوياً، قال تعالى: ﴿وَقَلَّبْ أَفْعَدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(١١)</sup> ذلك أن الهوى قد سيطر على آلة البصر والسمع، وأصبح الهوى هو المتصرف والمسيطر، فبهواه يأتمر، وبه ينتهي.

وباتباع الهوى ضل الإنسان عن سبيل الحق، قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾<sup>(١٦)</sup>.

والهوى مضاد للحق، بل قسيم له، فالوحي والهوى ضدان لا يجتمعان، بل هو عين مخالفة الشرع<sup>(٤)</sup>.

### الوسائل المعينة على التخلص من اتباع الهوى:

ذكر ابن القيم جملة من الوسائل المعينة على التخلص من اتباع الهوى بعد عون الله وتوفيقه، ومنها:

(١) «منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية (٥/ ٢٦٤) بحذف وزيادة.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١١٠.

(٣) سورة ص، آية: ٢٦.

(٤) «الموافقات»، للشاطبي (١/ ٥١٠، ٢/ ٦٤ - ٦٥، ٥/ ٩٦ - ٩٩).

- الأولى: عزيمة حريغار لنفسه وعليها.
- الثانية: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.
- الثالثة: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة.
- الرابعة: ملاحظته حُسن موقع العاقبة، والشفاء بتلك الجرعة.
- الخامسة: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.
- السادسة: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.
- السابعة: إثارة لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.
- الثامنة: فرحه بغلبة عدوه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه، حيث لم ينل منه أمنيته.
- التاسعة: مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذلّه في الظاهر وفي الباطن<sup>(١)</sup>.
- العاشرة: البُعد عن مجالسة أهل الأهواء، والحرص على مخالطة العلماء:

وخالط إذا خالطت كل موفق

من العلماء أهل التقى والتسدّد

(١) «روضه المحيين»، لابن القيم، (ص: ٤٧١ - ٤٨٥).

يفيدك من علم وينهاك عن هوى

فصاحبه تهد من هداه وترشد<sup>(١)</sup>

الحادية عشرة: سؤال الله الهداية، والاستعاذة به من مضلات الأهواء: فعن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال والأهواء»<sup>(٢)</sup>.

ودعا عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان بقوله: «أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى»<sup>(٣)</sup>.

ودعا إبراهيم التيمي بقوله: «اللهم اعصمني بكتابك وسنة نبيك من اختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى بغير هدى منك، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ، واللبس، والخصومات»<sup>(٤)</sup>.

الثانية عشرة: ردع النفس وإجبارها على مخالفة الهوى: قال أبو حازم: «قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك»<sup>(٥)</sup>.

وقال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد أي الجهاد أفضل؟ قال «جهادك هواك»<sup>(٦)</sup>.

(١) «الآداب الشرعية»، للماوردي (٣/ ٥٨٩).

(٢) رواه الترمذي: ٥/ ٥٧٥، وقال: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني في «المشكاة»: (٢٤٧١).

(٣) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم (٨/ ١٨).

(٤) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم (٤/ ٢١١).

(٥) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم (٣/ ٢٣١).

(٦) «روضة المحيين»، لابن القيم، (ص: ٤٧٨).

وقال ابن الجوزي: «وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته»<sup>(١)</sup>.

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى

من الناس إلا حازم الرأي كامله<sup>(٢)</sup>

الثالثة عشرة: التأمل في العواقب الوخيمة والآثار السيئة المترتبة على اتباع الهوى: فما خالط الهوى شيئاً إلا أفسده<sup>(٣)</sup>.

الرابعة عشرة: استشعار فضائل وثمرات مخالفة الهوى، ومنها: «أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في قلبه ولسانه وبدنه»<sup>(٤)</sup>، وأن المخالف لهواه في ظل عرش الرحمن يوم القيامة<sup>(٥)</sup>، وأن المخالف لهواه مأواه جنة المأوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَيَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) «ذم الهوى»، لابن الجوزي، (ص: ١٣).

(٢) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، (ص: ٣٠).

(٣) «روضة المحبين»، لابن القيم، (ص: ٤٧٤).

(٤) «روضة المحبين»، لابن القيم، (ص: ٤٧٧).

(٥) «روضة المحبين»، لابن القيم، (ص: ٤٨٦).

(٦) سورة النازعات، آية: ٤٠، ٤١.

## المبحث الثالث

### الحسد

#### تعريف الحسد:

الحسد لغة: الحسد: تمنى الشر للغير: ومصدره «حسده، يحسده، ويحسده، حسداً، وحسوداً، وحسادة، وحسده، تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما، وحسده الشيء وعليه»<sup>(١)</sup>.

الحسد اصطلاحاً: هو «الحسد: تمنى زوال نعمة المحسود إلى الحاسد»<sup>(٢)</sup>.

وقيل هو: «وهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها، سواء كانت نعمة دينٍ أو دنيا»<sup>(٣)</sup>.

#### الفرق بين الحسد والغبطة:

الغبطة: تمنى الإنسان أن يكون له من الذي لغيره من غير إرادة إذهاب ما لغيره. أما الحسد فهو إرادة زوال نعمة الغير، ثم إن الغبطة صفة المؤمن، والحسد صفة المنافق<sup>(٤)</sup>.

(١) «لسان العرب»، لابن منظور (٣/١٤٨)، و«القاموس المحيط»، للفيروز آبادي، (ص: ٢٧٧).

(٢) «التعريفات»، للجرجاني، (ص: ٨٧).

(٣) «شرح صحيح مسلم»، للنووي (١٨/٩٦).

(٤) «الكليات»، للكفوي، (ص: ٦٧٢)، و«المفردات»، للراغب، (ص: ١١٧).

### بواعث الحسد وأسبابه:

للحسد أسباب كثيرة تجعل النفس المريضة تقع في حبال تلك الخصلة الذميمة، وقد أجملها الجرجاني بقوله: «التفاضل - أطال الله بقاءك - داعية التنافس، والتنافس سبب التحاسد، وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه. وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته، ومؤثلاً في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمة عن انتقاله، فلجأ إلى حسد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأمثال، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته، وستر ما كشفه العجز عن عورته، اجتذابهم إلى مشاركته، ووسمهم بمثل سمته<sup>(١)</sup>.

### وذكر الماوردي بواعث الحسد في ثلاثة أمور:

أحدهما: بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر، أو منقبة تشكر، فيشير حسداً قد خامر بغضاً. وهذا النوع لا يكون عاماً وإن كان أضرها، لأنه ليس يبغض كل الناس.

والثاني: أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدّمه فيه واختصاصه به، فيشير ذلك حسداً لولاه لكف عنه. وهذا أوسطها، لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا، وإنما يختص بحسد من علا. وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسداً.

(١) «الوساطة بين المتبني وخصومه»، للجرجاني، (ص: ١).

والثالث: أن يكون في الحاسد شح بالفضائل، وبخل بالنعم وليست إليه فيمنع منها، ولا بيده فيدفع عنها، لأنها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه، ويحسد على ما منح من عطائه، وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر، ومنحه عليه أظهر. وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية، فإن اقترن بشر وقدرة كان بوراً وانتقاماً، وإن صادف عجزاً ومهانة كان كمداً وسقاماً<sup>(١)</sup>.

### وذكر الغزالي أن بواعث الحسد سبعة أمور:

١- «العداوة والبغضاء: وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفي بنفسه أحب أن يتشفي منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها، وظنّها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساء ذلك، لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

٢- التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية، أو علماً، أو مالاً خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه، وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن

(١) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، (ص: ٢٧٠).

يتكبر، بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

٣- الكبر: وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه، ويستصغره، ويستخدمه، ويتوقع منه الانقياد له، والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعتها، أو ربما يتشوف<sup>(١)</sup> إلى مساواته، أو إلى أن يرتفع عليه، فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.

٤- التعجب: فيجزع الحاسد من أن يتفضل عليه من هو مثله في الخلقة، لا عن قصد تكبر، وطلب رياسة، وتقدم عداوة، أو سبب آخر من سائر الأسباب.

٥- الخوف من فوت المقاصد: وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات<sup>(٢)</sup> في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال.

٦- حب الرياسة وطلب الجاه: وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر، وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك، وأحب موته، أو زوال النعمة

(١) يتطلع.

(٢) الزوجات.

عنه التي بها يشاركه المنزلة، من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة، أو جمال، أو ثروة، أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده.

٧- خُبث النفس وشحّها بالخير لعباد الله تعالى: فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه، يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس، وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنقص عيشتهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه»<sup>(١)</sup>.

### مساوئ الحسد:

الحسد بوابة الآثام، وبضاعة اللثام، وهو في الغالب داء ينشأ من ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، وقلة الفهم لمعاني الأسماء والصفات.

فالحاسد لو كان عنده إيمان قوي بقضاء الله وقدره ما حسد الناس على ما قضاه الله وقدره، ولو كان عنده علم وفهم لاسمي الله: العليم والحكيم ما حسد، لأن الله حكيم في قضائه وقدره وعليم بخلقه، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد»<sup>(٢)</sup>.

(١) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/١٩٢) بتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٣/٢٤٢).

وقد أجمل الماوردي مساوي الحسد في أربعة أمور:

- ١- حسرات الحسد وسقام الجسد، ثم لا يجد لحسرتة انتهاء، ولا يؤمل لسقامه شفاء، قال ابن المعتز: الحسد داء الجسد.
  - ٢- انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة، لانحراف الناس عنه، ونفورهم منه، وقد قيل في منشور الحكم: الحسود لا يسود.
  - ٣- مقت الناس له، حتى لا يجد فيهم محباً، وعداوتهم له، حتى لا يرى فيهم ولياً، فيصير بالعداوة مأثوراً، وبالمقت مزجوراً.
  - ٤- إسقاط الله تعالى في معارضته، واجتناء الأوزار في مخالفته، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً، ولا لنعمه من الناس أهلاً<sup>(١)</sup>.
- ومن مساىء الحسد أيضاً:

- ١- الشحناء، والبغضاء، المقاطعة، والهجر، والغيبة والنميمة، وأذية المؤمن بغير حق، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك كله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٨) ﴿٢﴾.

وقال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا...»<sup>(٣)</sup>.

- ٢- الظلم والعدوان، كما في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته،

(١) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، (ص: ٢٧٣).

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

(٣) رواه مسلم من حديث أنس.

فإنهم لما رأوا ما ليوסף عند أبيه من المكانة والمنزلة والفضل حسدوه على ذلك، فدبروا له تلك المكيدة النكراء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾<sup>(١)</sup>.

فقد ذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف وعبر عما في قلوبهم بقوله: ﴿قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾<sup>(٢)</sup> فبين تعالى أن حسدهم له عبارة عن كراحتهم حصول تلك النعمة له»<sup>(٣)</sup>.

فقد «كان يعقوب قد كلف بهما، لموت أمهما، وزاد في المراعاة لهما، فذلك سبب حسدهم لهما، وكان شديد الحب ليوسف، فكان الحسد له أكثر، ثم رأى الرؤيا فصار الحسد له أشد»<sup>(٤)</sup>.

٣- تفكك المجتمع وانتشار الجرائم، كالسرقة والقتل، كما في قصة ابني آدم «هابيل وقابيل»، فقد كان الحسد الدافع وراء أول جريمة على الأرض على ما ساقه الله من فضل وإكرام لعبده الذي

(١) سورة يوسف، آية: ٧، ٨، ٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨، ٩.

(٣) «مفاتيح الغيب»، للرازي (٣/٦٤٦).

(٤) «النكت والعيون»، للماوردي (٣/٩).

قرب إليه قرباناً فتقبله منه، إشارة إلى رضاه عنه، فحسده أخوه على ذلك الفضل<sup>(١)</sup>.

### أثر الحسد في رد الحق:

الحسد فطرة جُبلت عليه النفوس، ولكن المؤمن يخفيه، ويجاهد نفسه على التخلص منه.

وعليه، فليس العيب في الحسد بحد ذاته، ولكن العيب فيما يترتب عليه، فإذا ترتب عليه مفسدة على الحاسد نفسه، أو على المحسود أو صار معيباً مذموماً: «قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه، ويطلب عثراته»<sup>(٢)</sup>.

ومن المفاصد المترتبة على الحاسد ذاته - ناهيك المفاصد المترتبة على المحسود وعلى المجتمع - رد الحق، وعدم قبوله، يقول ابن القيم وهو يتحدث عن أسباب رد الحق: «ومن أعظم هذه الأسباب: «الحسد» فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الداء هو الذي جعل إبليس يرفض أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام، فإنه لما رأى تكريم الله لآدم عليه السلام وتشريفه له حيث

(١) للمزيد ينظر: «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٣/٧٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي (٢٠/٢٥٩).

(٣) «هداية الحيارى»، لابن القيم (١/٢٤٥).

أمر سبحانه الملائكة بالسجود له، حسده إبليس على هذه المنزلة، فامتنع عن السجود لآدم معتذراً بأعذار واهية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا الداء هو منع اليهود والنصارى من قبول الحق والهدى والنور الذي جاء به محمد ﷺ، فقد بين الله تعالى أن أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ حسدوه على ما آتاه الله من فضله، حتى إنهم زعموا أن كفار مكة أهدى من المؤمنين برسالة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا الداء هو الذي جعل كفار قريش يرفضون الاعتراف بنبوّة محمد ﷺ، وأنه رسول من عند الله، وذلك أنهم ظنوا أن النبوة مبنية على مقاييسهم الدنيوية المختلفة، قال الله تعالى حاكياً قصتهم وموبخاً لهم على سوء فهمهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الأعراف، آية: ١١، ١٢.

(٢) سورة النساء: ٥١، ٥٢، ٣٥، ٥٤.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٣١.

ومن هذا الباب كان حسد أكثر الكفار للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ له رؤوسنا؟ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١)، وقال تعالى يصف قول قريش: ﴿أَهْتُولَاءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣) (١) كالاستحقار بهم والأنفة منهم (٢).

وقد جاء في الأثر: أن أبا جهل وأبا سفيان بن حرب والأخنس بن شريق التقوا وقد انصرفوا من حول بيت رسول الله ﷺ وقد جاؤوا لا يعرف كل واحد منهم من خبر الآخر شيئاً، يستمعون إلى رسول الله ﷺ يتلو القرآن الكريم، وكان ذلك لقاءهم الثالث، وتعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها فيروا على غير ما يعهدهم الناس، وفي صباح اليوم الثالث، دلف الأخنس بن شريق إلى بيت أبي جهل، يستطلع الأثر الذي تركه سماع القرآن الكريم من فم رسول الله ﷺ في نفس أبي جهل، ويسأل الأخنس: فيم سمع من محمد؟ ويرد أبو جهل: ما سمعت! (أي مثل ما سمعت يا أخنس): «تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدق»، وانكشف للأخنس ما انطوت عليه نفس أبي جهل (٣).

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٣.

(٢) «مفاتيح الغيب»، للرازي (٣/٦٤٨).

(٣) «دلائل النبوة»، للبيهقي (٢/٢٠٦).

### دواء الحسد:

يجب مجانية الحسد وتصفية القلب منه، ومجاهدة النفس على التخلص منه، قال أبو حاتم: «الواجب على العاقل مجانية الحسد على الأحوال كلها»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر العلماء دواء الحسد في عدة أمور، أجملها الرازي في أمرين: «العلم، والعمل. أما العلم، ففيه مقامان إجمالي وتفصيلي.

أما الإجمالي فهو: أن يعلم أن كل ما دخل في الوجود فقد كان ذلك من لوازم قضاء الله وقدره، لأن الممكن ما لم ينته إلى الواجب لم يقف، ومتى كان كذلك فلا فائدة في النفرة عنه، وإذا حصل الرضا بالقضاء زال الحسد..

وأما التفصيلي فهو: أن تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه ليس فيه على المحسود ضرر في الدين والدنيا، بل ينتفع به في الدين والدنيا.

وأما العمل النافع، فهو أن يأتي بالأفعال المضادة لمقتضيات الحسد، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له، وإن حملة على التكبر عليه كلف نفسه التواضع له، وإن حملة على قطع أسباب الخير عنه كلف نفسه السعي في إيصال الخيرات إليه، فمهما عرف المحسود ذلك طاب قلبه وأحب الحاسد»<sup>(٢)</sup>.

(١) «روضة العقلاء»، لابن حبان، (ص: ١٣٣).

(٢) «مفاتيح الغيب»، للرازي (٣/٦٤٩).

ونشرح ونبين ونضيف إلى ما ذكره الرازي عدة أمور:

١- قطع النظر عن الناس، وتعليق قلبه بالله سبحانه وتعالى، وسؤاله من فضله.

٢- المنافسة في الأعمال الصالحة لا في أمور الدنيا.

٣- أن يدرب نفسه على قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، والدعاء بالبركة، إذا أعجبه شيء.

٤- الدعاء للمحسود بالزيادة من فضل الله تعالى، إذا وجد في نفسه شيئاً من الحسد المذموم.

٥- الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم لحكمه، فهو الذي يعطي النعم ويسلبها، قال تعالى: ﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) ﴿١﴾.

٦- التفكير في نتائج الحسد، والنظر في عواقبه الوخيمة عليه وعلى من حوله، فهو يتألم بحسده ويتنغص في نفسه، فيبقى مغموماً، محروماً، متشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل به ما يشتهي الأعداء له، ويشتهي لأعدائه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (٢).

٧- أن يحذر نفور الناس منه، وبعدهم عنه، وبغضهم له، لأن الحسد

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

يظهر في أعمال الجوارح، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) ﴿١﴾، فيخاف عداوتهم له وملاמתهم إياه، فيتألفهم بمعالجة نفسه، وسلامة صدره.

٨- أن يصرف شهوة قلبه في مرضاة الله تعالى: فقد جعل الله في الطاعة والحلال ما يميل القلب بالخير، وما من صفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه، فجعل لصفة الحسد مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير، والغبطة عليه، والمسابقة إليه، وجعل لصفة الكبر التي تؤدي للحسد مصرفاً، هو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم، وجعل لقوة الحرص مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك» (٢) (٣).

وعلى صاحب النعم أن يخفي بعضها إذا كان في إظهارها مفسدة، قال الله تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَاَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧) ﴿٤﴾.

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٨ .

(٢) رواه مسلم.

(٣) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/١٩٦ - ٢٠٠)، و«التبيان في أقسام القرآن»، لابن القيم، (ص: ٤١٥).

(٤) سورة يوسف، آية: ٦٧.

## المبحث الرابع

### الكبر

#### تعريف الكبر:

الكبر لغة: وهو اسم كالكبرياء، وهو مأخوذ من مادة: «ك ب ر» التي تدل على خلاف الصغر، قال ابن فارس: «الكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء، يقال: ورثوا المجد كبراً عن كابر، أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز»<sup>(١)</sup>.

الكبر اصطلاحاً: عرفه النبي ﷺ بقوله: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»<sup>(٢)</sup>، واطر الحق، أي رد الحق، وهذا أجمع وأمنع تعريف للكبر. وقيل هو: «التكبر: أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التشبع وهو التزيّن بأكثر مما عنده»<sup>(٣)</sup>.

وقيل هو: «الكبر: استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير»<sup>(٤)</sup>.

#### حكم الكبر:

يختلف حكم الكبر بناء عن ماهية المتكبر عليه، فمن الكبر ما يكون كفراً أكبر مخرجاً من الملة يستحق صاحبه الخلود في النار، ومن الكبر ما

(١) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٥/١٥٣ - ١٥٤).

(٢) رواه مسلم.

(٣) «الكليات»، للكفوي، (ص: ٢٨).

(٤) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/٣٥٣).

يكون صاحبه مرتكباً لكبيرة من الكبائر يستحق العقوبة، ومع ذلك هو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وتفصيل ذلك يتحدث عنه القرطبي فيقول: «لما تقرر أن الكبر يستدعي متكبراً عليه، فالتكبر عليه: إن كان هو الله تعالى، أو رسله، أو الحق الذي جاءت به رسله، فذلك الكبر كفر، وإن كان غير ذلك فذلك الكبر معصية وكبيرة، يخاف على المتلبس بها المصر عليها أن تفضي به إلى الكفر، فلا يدخل الجنة أبداً. فإن سلم من ذلك، ونفذ عليه الوعيد، عوقب بالإذلال والصغار، أو بما شاء الله من عذاب النار، حتى لا يبقى في قلبه من ذلك الكبر مثقال ذرة، وخلص من خبث كبره حتى يصير كالذرة، فحينئذ يتداركه الله تعالى برحمته، ويخلصه بإيمانه وبركته»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عثيمين: «فالذي في قلبه كبر، إما أن يكون كبراً عن الحق وكرهه له، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة، لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، ولا يحبط العمل إلا بالكفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وأما إذا كان كبراً على الخلق وتعاضماً على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله فهذا لا يدخل الجنة دخولاً كاملاً مطلقاً لم يسبق بعذاب،

(١) «المفهم شرح صحيح مسلم»، للقرطبي (٢/ ٥٠).

(٢) سورة محمد، آية: ٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٧.

بل لا بد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق، ثم إذا طهر دخل الجنة»<sup>(١)</sup>.

### بواعث الكبر وأسبابه:

الكبر منه ما هو غريزي فُطر عليه الإنسان، قال أبو علي الجوزجاني: «النفس معجونة بالكبر...»<sup>(٢)</sup>.

ومن الكبر ما هو مكتسب ببواعث وأسباب إجمالية وتفصيلية.

أما الإجمالية: فاعتقاد الكمال: قال ابن قدامة: «فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور لظنه أن ذلك كمال»<sup>(٣)</sup>.

وأما التفصيلية فهي كما يقول الغزالي: «... وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي.

فالديني هو: العلم والعمل.

والدنيوي هو: النسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة الأنصار»<sup>(٤)</sup>.

ثم فصل الغزالي في هذه البواعث والأسباب<sup>(٥)</sup>.

(١) «شرح رياض الصالحين»، لابن عثيمين (٣/ ٥٤١ - ٥٤٢).

(٢) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/ ٣٤٣).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين»، لابن قدامة، (ص: ٢٢٩).

(٤) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/ ٣٤٧).

(٥) للمزيد ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٨)، وما بعدها.

### أثر الكبر في رد الحق:

الكبر في حقيقته وماهيته هو رد الحق واحتقار أهله، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»<sup>(١)</sup>.

ففي هذه العبارة الجامعة من جوامع كلمه ﷺ بين ﷺ حقيقة الكبر، موضعاً أشنع عواقبه وأخطر آثاره، وهو: رد الحق، واحتقار أهله.

و«بطر الحق» دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبيراً<sup>(٢)</sup>.

و«غمط الناس» ازدراؤهم واحتقارهم<sup>(٣)</sup>.

فقد فسر النبي ﷺ: «الكبر يبطر الحق»، وهو التكبر عليه، والامتناع من قبوله كبراً إذا خالف هواه.

وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وذلك يحصل من النظر إلى النفس بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص<sup>(٤)</sup>.

و«الكبر يمنع الانقياد»<sup>(٥)</sup>. و«ما ترك أحد حقاً إلا لكبرٍ في نفسه»<sup>(٦)</sup>.

والباعث على رد المتكبر للحق: أنه «ينظر إلى نفسه بعين الكمال،

(١) رواه مسلم.

(٢) «المنهاج شرح صحيح مسلم»، للنووي (٢/ ٩٠).

(٣) «اقتضاء الصراط»، لابن تيمية (٢/ ٣٧٧).

(٤) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (١/ ٣٠٧).

(٥) «الفوائد، لابن القيم»، (ص: ١٥٧).

(٦) «اقتضاء الصراط المستقيم»، لابن تيمية (٢/ ١٢٠).

وإلى غيره بعين النقص، فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحد منهم الحق إذا أوردته عليه»<sup>(١)</sup>.

وذلك بأن يكون الإنسان على جهالة أو باطل، كما يقول عبدالرحمن المعلمي: «فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق تبين له ببحته ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بين له»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم: «ولما كان لصاحب الحق مقال وصوله كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصوله على تلك الصولة التي فيها، ولا سيما النفوس المبطله، فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها»<sup>(٣)</sup>.

والاستكبار عن الحق على نوعين:

النوع الأول: الاستكبار عن الحق كلياً، كحال الأمم والأفراد الذين رفضوا الانقياد للرسول بالكلية.

النوع الثاني: الاستكبار عن بعض الحق، كأولئك الذين رفضوا الانقياد للحق في مسألة معينة، كحال ذلك الرجل الذي أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له النبي ﷺ: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه»<sup>(٤)</sup>.

(١) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (٢/ ٢٧٥).

(٢) «القائد في إصلاح العقائد»، للمعلمي، (ص: ١٣).

(٣) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/ ٣١٨).

(٤) رواه مسلم.

فكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما رد من الحق، كما يقول عبدالرحمن ناصر آل سعدي: «المتكبرون عن الانقياد للرسل بالكلية كفار مخلدون في النار، فإنه جاءهم الحق على أيدي الرسل مؤيداً بالآيات والبراهين، فقام الكبر في قلوبهم مانعاً، فردوه.

وأما المتكبرون عن الانقياد لبعض الحق الذي يخالف رأيهم وهواهم، فهم - وإن لم يكونوا كفاراً - فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر، وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به»<sup>(١)</sup>.

ومن تكبر عن الانقياد للحق فإنما تكبره على الله كما يقول ابن القيم: «فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفتة، ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رد على الله، وتكبر عليه»<sup>(٢)</sup>.

وعلاوة المتكبر عن الحق: أنه يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة، ويقال: هذا كتاب الله، هذه سنة رسول الله، ولكنه لا يقبل، بل يستمر على رأيه.

«وكثير من الناس ينتصر لنفسه، فإذا قال قولاً لا يمكن أن يتزحزح عنه، ولو رأى الصواب في خلافه»<sup>(٣)</sup>.

وقد توعد الله الذين لا يصغون للحق، ولا يقبلونه، ولا يعملون به،

(١) «بهجة قلوب الأبرار»، لابن سعدي، (ص: ١٦٥).

(٢) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/٣١٧).

(٣) «شرح رياض الصالحين»، لابن عثيمين (٣/٥٣٦ - ٥٣٧).

فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ سَمِعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾<sup>(١)</sup>.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ويل لأقماع القول»<sup>(٢)</sup>.

و«أقماع القول» هم الذين أذانهم كالقمع يدخل فيه سماع الحق من جانب، ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه»<sup>(٣)</sup>.

و«ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا جاء به من يحبه. قال بعض الصحابة: أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، وأرد الباطل على من قاله ولو كان حبيباً»<sup>(٤)</sup>.

والواجب التواضع للحق، والانقياد له، وقبوله ممن كان، قال بعض السلف: «التواضع أن تقبل الحق من كل من جاء به، وإن كان صغيراً، فمن قبل الحق ممن جاء به، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان يحبه أو لا يحبه، فهو متواضع، ومن أبى قبول الحق تعاضماً عليه، فهو متكبر»<sup>(٥)</sup>.

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: «يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله»<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الجاثية، آية: ٧، ٨.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد»: (ص ٣٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) «فتح الباري»، لابن حجر (١/ ١٨١).

(٤) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٣/ ٤٨٢).

(٥) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (١/ ٣٠٧).

(٦) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/ ٣١٤).

وبين ابن القيم حقيقة التواضع للحق، فقال: «أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقبته، بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه»<sup>(١)</sup>.

وحقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هو أن يستسلم العبد لله، لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر<sup>(٢)</sup>.

وقبول الحق الذي جاء به الرسول ﷺ يكون بثلاثة أشياء:

الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرهما، أو أن غيره كان أولى منه.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه، ولا بلسانه ولا بفعله، ولا بحاله<sup>(٣)</sup>.

### عقوبات الكبر:

للکبر عقوبات كثيرة في الدنيا والآخرة، فمن عقوباته في الدنيا:

(١) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/٣١٧).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٠/١٩٥).

(٣) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/٣١٨ - ٣١٩).

أولاً: صرف المتكبر عن فهم آيات الله، والاهتداء بها: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾<sup>(١)</sup>.

فالمستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكباراً واتباعاً لأهوائهم عوقبوا بأن مُنعوا الفهم والعلم<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: زوال النعم وحلول النقم: كما يدل على ذلك حديث: «كل يمينك» قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه<sup>(٣)</sup> صارت والعياذ بالله قائمة كالعصا، لا يستطيع رفعها، لأنه استكبر على دين الله عز وجل<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: الذلة والصغار: فكل «من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره»<sup>(٥)</sup>.

رابعاً: استحالة التوبة: قال سفيان بن عيينة: «من كانت معصيته في شهوة، فأرجو له التوبة، فإن آدم - عليه السلام - عصى مشتتياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فأخشى عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن»<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٢) «الفتاوى»، لابن تيمية (٦٢٦/٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «شرح رياض الصالحين»، لابن عثيمين (٥٤٣/٣).

(٥) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٣١٧/٢).

(٦) «مختصر منهاج القاصدين»، لابن قدامة، (ص: ٢٧١).

وغير ذلك من العقوبات الدنيوية.

وأما عقوباته في الآخرة، فمنها:

أولاً: الذل والمهانة يوم الحشر في عرصات القيامة: فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: الحرمان من دخول الجنة: فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: دخول النار: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ماوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيده، والانهاء إلى طاعته فيما أمره ونهاه عنه<sup>(٤)</sup>.

وعن وحارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «... ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل، جواظ مستكبر»<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١ / ٦٥).

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٤) «جامع البيان»، لابن جرير (٢١ / ٣١٩).

(٥) متفق عليه.

وفي حديث احتجاج الجنة والنار قالت النار: «يدخلني الجبارون، والمتكبرون»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: دخول النار بصغار وحقارة ومهانة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> أي صاغرين حقيرين<sup>(٣)</sup> يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم<sup>(٤)</sup>، ويعذبون عذاب الهون، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾<sup>(٥)</sup> دلّت هذه الآية الكريمة على أن الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار<sup>(٥)</sup>.

وغير ذلك من العقوبات الأخروية.

### وسائل التخلص من الكبر وعلاجه:

الكبر من المهلكات، والتخلص منه وعلاجه فرض عين، ولا يمكن علاجه بمجرد التمني بل بالمعالجة الحقيقية، ومن ذلك:

١- استئصال أصل الكبر من القلب: وذلك بأن يعرف العبد نفسه، ويعرف ربه، فإذا عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه حق المعرفة علم أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به.

(١) رواه مسلم.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٧/ ١٤٠).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن»، لابن سعدي: (ص: ٧٤١).

(٤) سورة الأحقاف، آية: ٢٠.

(٥) «أضواء البيان»، للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

٢- النظر والتأمل في بواعث الكبر، وأسبابه، وإدراكه أنه لا يليق به التكبر بها.

٣- تذكير النفس بعواقب الكبر وآثاره السيئة، سواء كانت عواقب دنيوية، أو أخروية.

٤- الانسلاخ من صحبة المتكبرين، ومجالسة المتواضعين.

٥- إظهار الآخرين بنعمة الله عليهم، وتحديثهم بها لا سيما أمام المستكبرين.

٦- التذكير بمعايير التفاضل في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»<sup>(٢)</sup>.

٧- المواظبة على الطاعات، ومن ذلك: السجود، قال يحيى بن جعدة: «من وضع جبينه لله ساجداً فليس بمتكبر وقد برئ من الكبر»<sup>(٣)</sup>.

٧- الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به، فهو سيد المتواضعين.

٨- التأمل في سيرة العلماء المتواضعين: روي أن عمر بن عبد العزيز، أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني، في «صحيح أبي داود» (٩٠/١).

(٣) «الزهد»، لو كيع بن الجراح (٦٣٦/٢).

الغلام، فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملاً المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين، فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً<sup>(١)</sup>.

٩- نصح المتكبرين، وعدم تشجيعهم على ذلك، فإن استكانة بعض الناس وذلمهم يدفع المتكبرين إلى مزيد من التكبر، بل ينبغي تأديبهم ومعاقبتهم.

(١) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٣/ ٣٥٥).

## المبحث الخامس

### الظلم

#### تعريف الظلم:

الظلم لغة: الظلم: الجور ومجاوزة الحد: يقال: ظلّمه، يظلمه ظلماً، وظلماً، ومظلماً، فالظلم مصدر حقيقي، والظلم الاسم، وهو ظالم وظلوم<sup>(١)</sup>.

وأصل المادة تدل على أصلين، قال ابن فارس: «الطاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تعدياً»<sup>(٢)</sup>.

الظلم اصطلاحاً: «هو وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته، أو مكانه»<sup>(٣)</sup>.

وقيل هو: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تهذيب اللغة»، للأزهري (١٤ / ٢٧٤).

(٢) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٣ / ٤٦٨)، وللمزيد: ينظر: «مختار الصحاح»، للرازي، (ص: ١٩٧)، و«القاموس المحيط»، للفيروز آبادي، (ص: ١١٣٤).

(٣) «المفردات»، للراغب، (ص: ٥٣٧).

(٤) «الكليات»، للكفوي، (ص: ٥٩٤).

## حكم الظلم:

يختلف حكم الظلم بناء على نوعية الظلم، فإذا كان الظلم ظلماً كبيراً، كالشرك، فإن هذا الظلم لا يغفره الله إلا بالتوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨) (١).

وإذا كان الظلم متعلقاً بحق من حقوق العباد، فإن هذا الظلم لا يترك الله منه شيئاً، فلا بد من القصاص في الدنيا أو في الآخرة إلا بالعفو والمسامحة.

وأما إذا كان الظلم متعلقاً بالعبء نفسه كتركه لواجب، أو فعله معصية، ولم تصل المعصية إلى حد الشرك، فإن الإنسان تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفره، وإن شاء عذب به.

## ذم الظلم والتحذير منه:

الظلم خلق ذميم، وذنوب جسيم، وأذى عظيم، ووصف لئيم، يحلق الدين، ويحلق الحسنات، ويجلب الويلات والنكبات، ويورث العداوات والمشاحنات، ويثمر الأحقاد والضغائن، ويسبب القطيعة والعقوق، ويحيل حياة الناس إلى جحيم وشقاء، وكدر وبلاء، قال ابن تيمية: «وكل شر فهو داخل في الظلم» (٢).

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) «الفتاوى الكبرى»، لابن تيمية (١/٩٧).

وقال ابن القيم: «وأصل كل شر هو الجهل والظلم»<sup>(١)</sup>.

والظلم إنما ينشأ عن ظلمة القلب<sup>(٢)</sup>.

وقد ذم الله الظلم والظالمين، وحذّر منهم، وبين مساوئهم، وسوء عاقبتهم، ويتجلى ذلك في الأمور التالية:

الأول: بغضه تعالى لهم وعدم محبته لهم: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

الثاني: خذلانه لهم وعدم نصرته لهم: قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾<sup>(٥)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾<sup>(٦)</sup>.

الثالث: النهي عن القرب منهم، والركون إليهم، ومجالستهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾<sup>(٧)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يُنْسِينَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٨)</sup>،

(١) «إغاثة اللهفان»، لابن القيم (٢/١٣٦-١٣٧).

(٢) «فتح الباري»، لابن حجر (٥/١٠٠).

(٣) سورة آل عمران، آية: ٥٧.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٥) سورة فاطر، آية: ٣٧.

(٦) سورة الشورى، آية: ٨.

(٧) سورة هود، آية: ١١٣.

(٨) سورة الأنعام، آية: ٦٨.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠)<sup>(٢)</sup>.

الرابع: الضلال وعدم الهداية: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٨)<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٤)<sup>(٤)</sup>.

الخامس: الخسارة وعدم الفوز والفلاح: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢١)<sup>(٥)</sup>.

السادس: تحذيرهم وتهديدهم بالعقوبة: قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧)<sup>(٦)</sup>، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥١)<sup>(٧)</sup>.

السابع: دمارهم وهلاكهم وخراب قراهم وبيوتهم ودولهم: قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢)<sup>(٨)</sup>، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ (٤٥)<sup>(٩)</sup>.

(١) سورة الأعراف، آية: ٤٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٤٤.

(٥) سورة الأنعام، آية: ٢١.

(٦) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٧) سورة الزمر، آية: ٥١.

(٨) سورة النمل، آية: ٥٢.

(٩) سورة الحج، آية: ٤٥.

الثامن: توعدهم بالويل والشور: قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٦٥) (١)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) (٢).

التاسع: وعدهم بالنار، وبئس القرار: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيضُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩) (٣)، وقال تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧) (٤).

العاشر: أعد الله لهم عذاباً مهيناً أليماً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) (٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١) (٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) (٧).

الحادي عشر: لعنهم الله وغضب عليهم: قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) (٨)، وقال تعالى: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) (٩).

(١) سورة الزخرف، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٤.

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٩.

(٤) سورة الحشر، آية: ١٧.

(٥) سورة إبراهيم، آية: ٢٢.

(٦) سورة الشورى، آية: ٢١.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٨) سورة هود، آية: ١٨.

(٩) سورة الأعراف، آية: ٤٤.

الثاني عشر: شدة حسرتهم وفزعهم ورعبهم يوم القيامة: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧)، وقال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (٢).

الثالث عشر: شناعة وسوء عاقبتهم: قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)، وقال تعالى: ﴿وَحَاذُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

### أثر الظلم في رد الحق:

سبق أن بيّنا أن الظلم على نوعين:

النوع الأول: الظلم الأكبر، وهو المتعلق بحق الله، أو بحق رسله، أو بحق كتبه.

النوع الثاني: الظلم الأصغر، وهو المتعلق بحقوق الخلق.

(١) سورة الزمر، آية: ٤٧.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٢.

(٣) سورة يونس، آية: ٣٩.

(٤) سورة القصص، آية: ٤٠.

(٥) سورة النمل، آية: ١٤.

فالظلم الأكبر المتعلق بحق الله، أو حق رسله أو بحق كتبه المنزلة، هو الذي رد الحق به، ولم ينقله.

وقد دل على ذلك نصوص كثيرة، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) ﴿١﴾ لا أحد أظلم منهم لأنفسهم، لأنهم افتروا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكاً وولداً، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله (٢).

٢ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧) ﴿٣﴾ «لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افتري على الله كذباً وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا» (٤).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ (٥)، فلا أظلم ممن كذب بما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ من توحيد، والبراءة من الآلهة والأنداد لما جاءه هذا الحق من عند الله (٦).

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (١٨/٩).

(٣) سورة يونس، آية: ١٧.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٢٢٢/٤).

(٥) سورة العنكبوت، آية: ٦٨.

(٦) «جامع البيان»، لابن جرير (٦٢/٢٠).

والحق الذي كذب به الظالم هو الحق جاء: «على يد رسوله محمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾<sup>(٢)</sup>، «فلا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذكر بآيات الله، وبيّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورجب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه... فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً فإنه أخف ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك»<sup>(٣)</sup>.

٥ - قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردّها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه<sup>(٥)</sup>.

٦ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، لابن سعدي، (ص: ٦٣٧).

(٢) سورة الكهف، آية: ٥٧.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن»، لابن سعدي، (ص: ٤٨١).

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٩.

(٥) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٦/ ٢٥٩).

سَنَجْرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا إِنَّا سَاءُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾<sup>(١)</sup> أي لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، وصدف الناس، وصدفهم عن ذلك<sup>(٢)</sup>.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> من أشد ظلماً وعدواناً من اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر! ولما جاء به سحر! فكذلك افتراؤه على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام! يقول: إذا دعي إلى الدخول في الإسلام، قال على الله الكذب، وافتري عليه الباطل<sup>(٤)</sup>.

### وجوب التوبة من الظلم:

تجب التوبة من الظلم بجميع أنواعه، ويحرم التمادي فيه، والإصرار عليه.

والتوبة من الظلم المتعلقة بترك الحق وعدم قبوله يسهل على من كانت درجة انحرافه قليلة، وقد يصعب على من كانت نسبة انحرافه عن الحق كبيرة، قال الراغب: لما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها إما قريباً وإما بعيداً، فمن كان عنه (عن الحق)

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٧.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٣/٣٣٣).

(٣) سورة الصف، آية: ٧.

(٤) «جامع البيان»، لابن جرير (٣٥٩/٢٣).

أبعد كان الرجوع إليه أصعب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) ﴿١﴾ تنبيهاً إلى أن الشيطان متى أمعن بهم في البعد من الحق، صعب عليهم حينئذ الاهتداء.

وعلى هذا فمن كان إليه (أي إلى الحق) أقرب كان الرجوع إليه أسهل، ومن ثم فليحذر الظالم المبتدئ من التماذي في ظلمه حتى يعطي لنفسه فرصة الرجوع إلى الحق (٢).

وعليه فمن كانت نسبة انحرافه عن الحق صغيرة أو كبيرة قبول الحق، والانقياد له، والتسليم به.

وإذا صدق الإنسان في توبته وجاهد نفسه على ذلك وفقه الله وهداه وأعاناه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩) ﴿٣﴾.

وإذا تاب قبل الله توبته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) ﴿٤﴾، وقال تعالى: ﴿فَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) ﴿٥﴾.

وللتوبة الصادقة من الذنوب جميعاً خمسة شروط:

(١) سورة النساء، آية: ٦٠.

(٢) «الذريعة»، للراغب، (ص: ٢٥٣).

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٥) سورة المائدة، آية: ٣٩.

الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب.

الشرط الثاني: العزم على عدم العود.

الشرط الثالث: الندم على ما فات، فعن ابن مسعود قال: قال رسول

ﷺ: «الندم توبة»<sup>(١)</sup>.

الشرط الرابع: أن تكون قبل بلوغ الروح الحلقوم وقبل طلوع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»<sup>(٣)</sup>.

الشرط الخامس: إذا كان الظلم متعلقاً بحق إنسان أعاده إليه، أو تحلله منه، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه ابن ماجه: ٢ / ١٤٢٠، وحسنه ابن حجر، ينظر: «فتح الباري» (١٣ / ٤٧١).

(٢) سورة النساء، آية: ١٨.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

## المبحث السادس

### المداهنة

#### تعريف المداهنة:

المداهنة لغة: المداهنة: المصانعة واللين، قال ابن فارس: «الدال والهاء والنون» أصل واحد يدل على لين وسهولة وقلة.. والمداهنة: المصانعة، داهنت الرجل، إذا وارتبه وأظهرت له خلاف ما تضممر له، وأدهنت إدهاناً، غششت، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿وَدُوًّا لَوْتُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> (٢).

المداهنة اصطلاحاً: «هي أن ترى منكراً وتقدر على دفعه ولم تدفعه، حفظاً لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلّة مبالاة في الدين»<sup>(٣)</sup>.

وقيل هي: «إنما هي إعطاء بالدين، ومصانعة بالكذب، والتزيين للقبیح، وتصويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها»<sup>(٤)</sup>.

#### الفرق بين المداراة والمداهنة:

قال الغزالي: «الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك

(١) سورة القلم، آية: ٩.

(٢) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٢/٣٠٨)، وينظر: «لسان العرب»، لابن منظور (١٣/١٦٢).

(٣) «التعريفات»، للجرجاني، (ص: ٢٠٧).

(٤) «إكمال المعلم شرح صحيح مسلم»، للقاضي عياض (٨/٢٧٣).

بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: «المدارة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم.

والفرق بينهما: أن المدارة تلتطف الإنسان بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل.

وأما المداهن، فهو الذي يتلطف مع صاحبه ليقره على ذنب أو يتركه على هواه، فالمدارة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق. وقد ضرب لذلك مثل من أروع الأمثلة وذلك كرجل أصابته قرحة في قدمه فجاء الطبيب الرفيق فأخذ يعالج هذه القرحة ويخرج ما فيها ثم إذا به يضع الدواء الذي ينبت اللحم ثم يتعاهدها ثم يضع عليها المراهم حتى ينشفها ثم يضع عليها خرقة، فلا يزال يتابع هذا وهذا حتى نشفت رطوبتها.

وأما المداهن فهو الذي أتى إلى صاحب هذه القرحة وقال: لا بأس عليك إنما هي شيء يسير، واسترها عن عيون الناس بخرقة وتلهى عنها، فلا يزال يزداد شرها وتكثر عفونتها حتى يهلك»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن بطال: «المدارة من أخلاق المؤمنين... وقد ظن من لم يعن النظر أن المدارة هي المداهنة، وذلك غلط، لأن المدارة مندوب إليها، والمداهنة محرمة.

(١) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (٢/ ١٨٢).

(٢) «الروح»، لابن القيم، (ص: ٢٣١).

والفرق بينهما بيّن، وذلك أن المداهنة اشتق اسمها من الدهان الذي يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها.

وفسرها العلماء فقالوا: المداهنة هي أن يلقي الفاسق المظهر فسقه فيؤالفه ويؤاكله، ويشاربه، ويرى أفعاله المنكرة ويريه الرضا بها ولا ينكرها عليه ولو بقلبه، وهو أضعف الإيمان، فهذه المداهنة التي برأ الله عز وجل منها نبيه عليه السلام بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ نَدُّهُنْ فَيَدِّهُنَّ﴾<sup>(١)</sup>.

والمداواة هي الرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعاصي ولا يجاهر بالكبائر، والمعاطفة في رد أهل الباطل إلى مراد الله بلين ولطف حتى يرجعوا عما هم عليه<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن حجر: وضابط المداواة: أن لا يكون فيها قرح في الدين. والمداهنة المذمومة: أن يكون فيها تزيين القبيح، وتصويب الباطل، ونحو ذلك<sup>(٣)</sup>.

### بواعث المداهنة وأسبابها:

- ١- حب الشهرة والتصدر وكسب ثقة الجماهير وكثرة المتابعين.
- ٢- التقرب والترلف من ذوي الوجاهة والمال والسلطان.
- ٣- الولاء للدولة أو للمذهب أو للحزب أو للقبيلة أو للشيخ، أو... إلخ.

(١) سورة القلم، آية: ٩.

(٢) «شرح صحيح البخاري»، لابن بطال (١٠/٣٠٥ - ٣٠٦).

(٣) «فتح الباري»، لابن حجر (١٣/٥٢ - ٥٣).

- ٤- ضعف الإيمان، وسوء التربية، وقلة المروءة.
- ٥- الخوف من مرهوب أو الطمع في مرغوب.
- ٦- مسايرة الواقع، والاستسلام لضغوطاته.
- ٧- الانهزامية النفسية.
- ٨- الاستسلام للهوى والنفس والشيطان.

### صور المداهنة:

أولاً: المداهنة بالقول: وذلك بالثناء على أهل الباطل، وذكر محاسن أهله، والتهوين من أخطائهم، بل لربما التبرير لأفعالهم الشنيعة، وما أشبه ذلك.

ثانياً: المداهنة بالفعل: وذلك بحضور مجالس أهل الباطل، وغشيان منتدياتهم دون إنكار عليهم، أو التشبه بهم في الملبس والمأكل والمشرب والعادات، وما أشبه ذلك.

ثالثاً: المداهنة بالسكوت: وذلك بالصمت والإغضاء عن أخطاء أهل الباطل، وعدم بيان عوارها وخبثها وشرها، وما أشبه ذلك.

### ذم المداهنة:

المداهنة صفة مقبلة، وخصلة ذميمة، وذلك من وجوه عدة:

- ١- أنها سمة من سمات الجبناء الضعفاء في الغالب، بخلاف الأقوياء الشجعان.

- ٢- أنها صفة من صفات المنافقين، كما نص على ذلك ابن القيم<sup>(١)</sup>.
- ٣- أنها سمة من سمات أهل الضلال: قال ابن تيمية وهو يتحدث عن أهل المنطق: «يصير غالب هؤلاء مدهنين لعوامهم، مضلين لهم عن سبيل الله، أو يصيرون منافقين زنادقة لا يقرون بحق ولا بباطل، بل يتركون الحق كما تركوا الباطل، فأذكياء طوائف الضلال إما مضللون مدهنون، وإما زنادقة منافقون لا يكاد يخلو أحد منهم عن هذين»<sup>(٢)</sup>.
- ٤- أنها تتناقض مع فريضة الحسبة، وتتعارض مع نصوص الكتاب والسنة الأمرة ببيان الحق، والمحذرة من السكوت عن المنكر.
- ٥- أنها سبب لانتشار الشرور والفسق والفجور في الأرض.
- ٦- أنها وسيلة لتزيين القبيح، وتصويب الباطل.
- ٧- أنها مدخل من مداخل الشيطان على الإنسان، ذلك أن الشيطان في بداية الأمر يسهّل على الإنسان شأنها، فيبدأ يدهن في أمر صغير، ثم أمر أكبر، وهكذا حتى تؤدي به إلى الخروج من الدين.
- ٨- أنها تضم بين جناحيها الكذب، وخلف الوعد: أما الكذب فلا أن المدهن يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب، سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة. وأما إخلاف الوعد فلا أن المدهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده<sup>(٣)</sup>.

(١) «الروح»، لابن القيم، (ص: ٢٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٩/٢٤).

(٣) «مفهوم الحكمة في الدعوة»، لصالح بن حميد، (ص: ٥٤ - ٥٥).

٩ - أن المداهن أخبث حالاً من أصحاب الكبائر<sup>(١)</sup>: قال بعض السلف: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس»<sup>(٢)</sup>.

### عواقب المداهنة وآثارها:

للمداهنة عواقب وخيمة، وآثار سيئة، على المداهن، وعلى المجتمع، وعلى الحق وأهله.

أولاً: على المداهن نفسه:

١ - سخط الله: ذلك أنه التمس رضا الناس بسخط الله، وصار الخلق في نفسه أجلاً من الله، و«من التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»<sup>(٣)</sup>.

٢ - اللعن والطرده من رحمة الله: قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، فالمداهن القادر على تغيير المنكر ولم يمه عنه تحمل عليه لعنة الله وغضبه.

٣ - الذل والهوان، لأن المداهن طلب العز بمداهنته للباطل، فكما أنه هان عليه أمر الله أهانه الله وأذله: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) عدا الشرك.

(٢) «موارد الظمآن»، لعبد العزيز السلطان (١٤٩/٣٢).

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني، في «صحيح الترمذي» (٤/١٢٠).

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨.

(٥) سورة التوبة، آية: ٦٧.

قال بعض السلف: «من ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مخافة المخلوقين، نزعت منه الطاعة، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه»<sup>(١)</sup>.

٤- التعرض لعقوبة الله.

٥- حكمه حكم فاعل المنكر: قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup>، فسوّت الآية في الحكم بين فاعل المنكر والساكت عنه.

ثانياً: على المجتمع:

الهلاك والعقوبات العامة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم» قالت: قلت يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم»<sup>(٣)</sup>.

فإذا كثر الفساد في الأرض وسكت أهل الحق عن إنكاره عمّت الأمة عقوبة جماعية.

فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟

(١) «صفة الصفوة»، لابن الجوزي، (١/٣٩٨).

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٠.

(٣) متفق عليه.

قال: «نعم إذا كثر الخبث»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال الشنقيطي: «والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب، صالحهم وطالحهم»<sup>(٣)</sup>.

وقد يقول قائل: ما ذنب من لم يعص الله ويعمه العقاب؟

أجاب عن ذلك ابن الجوزي فقال: «فإن قيل: فما ذنب من لم يظلم؟ فالجواب: أنه بموافقته للأشرار، أو بسكوته عن الإنكار، أو بتركه للفرار، استحق العقوبة»<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: على الحق وأهله:

١ - تحريف الحق وتبديله:

قال ابن القيم: «ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبّاد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم،

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٣) «أضواء البيان»، للشنقيطي (١/ ٤٦١ - ٤٦٢).

(٤) «زاد المسير»، لابن الجوزي (٢/ ٢٠٢).

حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها»<sup>(١)</sup>.

٢- الصد عن الحق:

قال ابن القيم: «شر على السالكين إلى الله من قطاع الطريق، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة»<sup>(٢)</sup>.

٣- تقوية أهل الباطل:

قال ابن باز: «ولو سكت أهل الحق عن بيانه لاستمر المخطئون على أخطائهم، وقلدهم غيرهم في ذلك»<sup>(٣)</sup>.

٤- ضعف الثقة بالحق وأهله.

٥- طعن الكفار في الدين، وتشكيكهم فيه، وبث الشُّبه والأباطيل حوله.

٦- استعلاء أهل الشر والفساد في الأرض.

٩- الجرأة على المعاصي والمنكرات، وعدم الاكتراث بها.

١٠- فشو الجهل، واندراس العلم.

١١- الوزر والإثم.

(١) «إغائة اللهفان»، لابن القيم (٢/ ٢٧٠).

(٢) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٣/ ٤٥).

(٣) «مجموع فتاوى» للعلامة عبد العزيز بن باز (٣/ ٧٢).

## وجوب بيان الحق:

يجب على أهل الحق بيانه للناس، وإقامة الحجة على أهل الباطل إبراء للذمة، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

ويجب على من رأى منكراً أن ينكره، ويحرم عليه السكوت إذا كان قادراً، فعن أبي سعيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (٢).

وقد نص العلماء على وجوب بيان الحق، ووضحوا المنهجية في ذلك، قال ابن الجوزي: «وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط، ولا اعتبار بقول جاهل يقول كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به، لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى الأشخاص، وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات، فلا تمنع منزلته بيان زلله» (٣).

وقال ابن تيمية: «ولهذا يسوغ بل يجب أن نبين الحق الذي يجب اتباعه وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمرء» (٤).

(١) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «تلبیس إبلیس»، لابن الجوزي (١/ ١٥٢).

(٤) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٩/ ١٢٣).

وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «فما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف وأخطأ كائناً من كان، ولو كان أعلم الناس وأنقاهم، وإذا كان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق، وأمرنا باتباعه وترك ما خالفه، فمن تمام ذلك أن من خالفه من العلماء مخطئ يئبه على خطئه، ويُنكر عليه»<sup>(١)</sup>.

### وسائل الوقاية من المداهنة:

- ١- البعد عن بواعث المداهنة وأسبابها.
- ٢- الحرص على وسائل تقوية الإيمان وزيادته.
- ٣- سؤال الله الهداية، والسير على الصراط المستقيم، والثبات على الحق.
- ٤- الإكثار من الطاعات والقربات واجتناب المحرمات والمنهيات.
- ٥- تعظيم نصوص الكتاب والسنة، والحذر من القول على الله بلا علم.
- ٦- تعظيم شأن الفتوى واستشعار أنها توقيع عن الله.
- ٧- الرجوع إلى أهل العلم المشهود لهم بالفضل.
- ٨- مصاحبة الدعاة الصادقين وتكثير سوادهم.
- ٩- إحياء شعيرة الحسبة، وبذل النصيحة، وعدم السكوت على الباطل.

(١) «الدرر السننية في الأجوبة النجدية»، لعلماء نجد الأعلام، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم (٩/٨ - ٩).

- ١٠- النظر والتأمل في سير الأنبياء وكيف كانت دعوتهم لأقوامهم، وفي مقدمتهم النبي الخاتم محمد ﷺ.
- ١١- قراءة تراجم الناصحين المحتسبين من الصحابة والتابعين والعلماء والمصلحين.
- ١٢- الحرص على مرضاة الله وحده، والبعد عن مرضاة الخلق.
- ١٣- محاسبة النفس، وتذكيرها بعواقب المداهنة وآثارها السيئة.

## المبحث السابع التعصّب

### تعريف التعصّب:

التعصّب لغة: التجمّع والارتباط والنصرة: قال ابن فارس: «العين والصاد والباء» أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء، مستطيلاً أو مستديراً<sup>(١)</sup>.

والتعصّب: من العصبية، والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.<sup>(٢)</sup>

التعصّب اصطلاحاً: تعددت تعريفات العلماء للتعصّب تبعاً لتعدد أشكال التعصّب، ومن هذه التعريفات ما يلي:

- ١- مناصرة المحبوب في حق أو باطل<sup>(٣)</sup>.
- ٢- عدم قبول الحق عند ظهور دليله<sup>(٤)</sup>.
- ٣- نصره قومه أو جماعته أو من يؤمن بمبادئهم سواء كانوا محقين أم مبطلين، وسواء كانوا ظالمين أو مظلومين<sup>(٥)</sup>.

(١) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٤/٣٣٦).

(٢) «لسان العرب، لابن منظور» (١/٦٠٦)، و«المعجم الوسيط»، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/٦٠٤)، و«معجم لغة الفقهاء»، لمحمد رواس، وحامد صادق، (ص: ٣١٣).

(٣) «معجم لغة الفقهاء»، لمحمد رواس قلعجي وحامد صادق قنبي، (ص: ٣١٣).

(٤) «جامع العلوم في اصطلاحات الفنون»، لعبد النبي الأحمد (١/٢١٨).

(٥) «الحوار وآدابه في الإسلام»، لعبد الله المشوخي، (ص: ٩٩).

### أشكال التعصب:

التعصب له أشكال متعددة، ومنها:

- ١- التعصب القبلي.
  - ٢- التعصب القومي.
  - ٣- التعصب الحزبي.
  - ٤- التعصب الديني.
  - ٥- التعصب المذهبي.
  - ٦- التعصب الطائفي.
  - ٧- التعصب الطبقي.
  - ٨- التعصب الرياضي.
  - ٩- التعصب للوطن والجنسية.
  - ١٠- التعصب للعلماء والآراء.
- وما أشبه ذلك من أشكال التعصب.

### أسباب التعصب:

لكل شكل من أشكال التعصب أسباب، وسوف نتكلم هنا عن أسباب التعصب الديني، وللتعصب الديني أسباب كثيرة، ومن ذكر ذلك: الشوكاني<sup>(١)</sup>، ومنها هذه الأسباب:

(١) «أدب الطلب، للشوكاني»، (ص: ٤٠ - ١١٦) بتصرف وحذف واختصار.

أولاً: النشوء في بلد متمذهب بمذهب معين: وهو أكثرها وقوعاً وأشدها بلاءً أن ينشأ المرء في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين، واقتدوا بعالم مخصوص.

فهؤلاء الذين ألفوا المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين، مبين لسبيل المؤمنين: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك، الخطأ ليس في اتباع مذهب معين، بل احتكار الحق وتضليل وتبديع المخالف لهم.

ثانياً: الحرص على الشرف والمال: فبهما حرّف أهل الكتاب كتب الله المنزلة على رسله، وكنتموا ما جاءهم فيها من بينات والهدى، كما وقع من أحبار اليهود.

وبسبب الحرص على الشرف والمال بقي من بقى على الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم وبه نافق من نافق.

وبسبب الحرص على الشرف والمال وقع في الإسلام من أهل العلم عجائب مودعة في بطون كتب التاريخ.

ثالثاً: الجدل والمراء وحب الظهور: وذلك بأن يكون للإنسان بصيرة وحسن إدراك، ومعرفة بالحق، ورغوب إليه، فيخطئ في المناظرة ويحمله الهوى ومحبة الغلبة، وطلب الظهور على التصميم على مقاله، وتصحيح خطأه، وتقويم معوجه بالجدال والمراء.

(١) سورة المؤمنون، آية: ٥٣.

رابعاً: القربة والتعصب للأجداد: وذلك بأن يكون بعض أقارب المرء قد قال بقول ومال إلى رأي، فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمله حب القربة على الذهاب إلى ذلك المذهب والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ.

خامساً: صعوبة الرجوع إلى الحق لقوله بخلافه: وذلك بأن يكون الإنسان قد قال بقول في مسألة ما، واشتهر عنه ذلك فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه وإن علم أنه الحق، وتبين له فساد ما قاله.

سادساً: كون المنافس المتكلم بالحق صغير السن أو الشأن: فتحمله حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفة من الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سنّاً أو أقل منه علماً أو أخفى شهرة، ظناً منه أن في ذلك عليه ما يحط منه، وينقص ما هو فيه.

سابعاً: الاستناد إلى قواعد ظنية لا مستند لها إلا محض الرأي.

ثامناً: عدم الموضوعية في عرض حجج المخالفين: بحيث يعرض أدلة المسائل بطريقة انتقائية، فيبالغ في إيراد أدلة مذهبه ويطيل الكلام عليها، ويصرح تارة بأنها أدلة، وتارة بأنها حجج، وتارة بأنها صحيحة، وإذا ما جاء إلى عرض أدلة المخالفين طفف لخصمه المخالف، وأورد أدلته بصيغة التعريض، وعنونها بلفظ الشبه، وما أشبه ذلك.

وإن كان الكلام على أحوال المخالفات كان الأمر على العكس من ذلك.

تاسعاً: المنافسة بين المتقارنين في الفضائل أو في الرئاسة الدينية أو الدنيوية: فإنه إذا نفخ الشيطان في أنفهما وترقت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك وإن كان صحيحاً جارياً على منهج الصواب.

عاشراً: المبالغة في التعصب للحق والنظرة الدونية للمخالفين له: قال الغزالي: «وأكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحري والادلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والإزراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في نفوسهم الاعتقادات الباطلة، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها... ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقراً في قلب مجنون فضلاً عما له قلب عاقل»<sup>(١)</sup>.

وقال أيضاً: «وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرته الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه»<sup>(٢)</sup>.

### أقسام التعصب من حيث المدح والذم:

أولاً: التعصب المحمود: وهو التمسك بالحق المتمثل بالكتاب

(١) «الاقتصاد في الاعتقاد»، للغزالي، (ص: ١٥).

(٢) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (١/ ٤٠).

والسنة على فهم سلف الأمة، والعمل به، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثانياً: التعصب المذموم: وهو المحاماة والمدافعة والمناصرة للباطل، وتسخير كافة الإمكانيات في سبيل ذلك، ورفض الحق وردّه ومعاداة أهله.

### ذم التعصب:

التعصب صفة ذنيّة، وهو من دلائل صغر النفس، وزغل العلم، والأنس بالباطل<sup>(١)</sup>.

والتعصب خصلة جاهلية، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾<sup>(٢)</sup>، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية مذموم في دين الإسلام<sup>(٣)</sup>.

وأكد النبي ﷺ على أن التعصب صفة جاهلية، فعن أبي ذر قال: «رأيت عليه برداً، وعلى غلامه برداً، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي: «أسأبت فلاناً؟ قلت: نعم، قال: «أفنت من أمه؟» قلت: نعم، قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية»<sup>(٤)</sup>.

فالتعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله من عمل الجاهلية<sup>(٥)</sup>.

(١) «العواصم من القواصم»، لابن العربي المالكي، (ص: ١٧).

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم»، لابن القيم (١/ ٢٣٥).

(٤) رواه البخاري.

(٥) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١١/ ٢٨).

والتعصب خلة متنتة، فعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنها متنتة»<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: «دعوى الجاهلية الاستغاثة عند إرادة الحرب، كانوا يقولون: يا آل فلان، فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالماً فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وقال النووي: «قوله ﷺ: «دعوها فإنها متنتة» أي قبيحة كريهة مؤذية»<sup>(٣)</sup>.

والتعصب إعانة على الظلم، فعن عباد بن كثير الشامي عن امرأة يقال لها: فسيلة، قالت: سمعت أبي يقول: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: «لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم»<sup>(٤)</sup>.

فلا يجوز لأحد أن يعين أحداً حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على

(١) رواه البخاري ومسلم، واللفظ له.

(٢) «فتح الباري»، لابن حجر (٥٤٦/٦).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (١٣٨/١٦).

(٤) رواه أحمد (١٩٦/٢٨ - ١٩٧)، وحسنه محققو المسند.

المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله، واتباع الحق والقيام بالقسط<sup>(١)</sup>.

والتعصب داء تبرأ النبي ﷺ منه ومن المتسمين به، فعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية»<sup>(٢)</sup>.

والتعصب داء يصد عن اتباع الحق، ويحمل على كتمانته، ولبسه بالباطل، وقد نهى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

والتعصب ذريعة لارتكاب المحرمات، كالغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والفرقة والتقاطع، وربما إلى الاقتتال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

والتعصب يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة الآمرة بالاعتصام والاجتماع، والمحدرة من الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا

(١) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٦/٢٨).

(٢) رواه أبو داود: ٤/٣٣٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤٢.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾<sup>(٢)</sup>.

والتعصب يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة الحاتثة على اتباع الدليل، والمحذرة من اتباع الهوى.

والتعصب يتنافى مع وجوب الانقياد للحق والرجوع إليه عند تبيّنه. والتعصب يتنافى مع نصوص الكتاب والسنة الآمرة بقبول الحق، والمحذرة من الباطل.

والتعصب يتنافى نصوص الكتاب والسنة الحاتثة على الألفة والرحمة والتعاطف بين المسلمين.

والتعصب يتنافى مع وسطية الإسلام ويسره وسماحته. والتعصب سمة من سمات الجهلة، وليس من سيما العلماء، قال الشافعي: «الحديث مذهبي فما خالفه فاضربوا به الحائط»<sup>(٣)</sup>.

قال الشاطبي معلقاً على قول الشافعي: «وهذا لسان حال الجميع»<sup>(٤)</sup> أي لسان حال جميع أئمة المذاهب المشهورة.

وقد أخرج العلماء «المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٣) «الاعتصام»، للشاطبي (٢/٥٠٥).

(٤) «الاعتصام»، للشاطبي (٢/٥٠٥).

زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من ورثة الأنبياء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه، ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟»<sup>(١)</sup>.

و«المتعصب ليس بأهل لأن يؤخذ الحق منه، فإذا لم ينتفع بالعلم ويهتدي بما علف منه فكيف يهتدي به غيره أو يتوصل بما جمعه إلى ما هو الحق؟ فالمصاب بالعمى لا يقود الأعمى، فإن فعل كانت ظلمات بعضها فوق بعض، والمريض لا يداوي من هو مصاب مثل مرضه ولو كان صادقاً فيما يزعمه من اقتدار على المداواة كانت نفسه التي بين جنبيه أحق بذلك منه»<sup>(٢)</sup>. فقتلة جاهلية».

والمتعصب إذا مات متعصباً للباطل، منافحاً عنه، مقاتلاً في سببه، فقد ساءت خاتمته، فعن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتله جاهلية»<sup>(٣)</sup>.

والمتعصب متوعد بالنار في الآخرة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء،

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٦/١).

(٢) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ١١٥).

(٣) رواه مسلم.

مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»<sup>(١)</sup>.

فجعل ﷺ الالتفات إلى الأنساب من عبية الجاهلية وتكبرها فكيف يعتبرها المؤمن، ويبنى عليها حكماً شرعياً؟<sup>(٢)</sup>.

وقد وضع الإسلام قانوناً ثابتاً للحد من التعصب: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال ﷺ: «الناس بنو آدم، وآدم من تراب»<sup>(٤)</sup>.

### أثر التعصب في رد الحق:

التعصب للباطل سبب من أسباب رد الحق وعدم قبوله، سواء كان تعصباً للرأي أو للشيخ أو للطائفة أو للقبيلة أو للفرقة أو لغير ذلك.

قال الشوكاني: «ولقد رأيت من أهل عصري في هذا عجباً، فإن بعض من جمعي وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد يتعصب لبعض المصنّفين من قرابته تعصباً مفرطاً، حتى أنه إذا سمع من يعترض عليه أو يستبعد شيئاً قاله، اضطرب وتزبد وجهه، وتغيّرت أخلاقه سواء عليه

(١) رواه أبو داود (٣٣١/٤)، وأحمد (٣٤٩/١٤)، رقم: (٨٧٣٦)، وحسنه الألباني.

(٢) «سبل السلام»، للشوكاني (١٨٩/٢).

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٤) رواه الترمذي (٧٣٥/٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

من اعترض بحق أو باطل، فإنه لا يقبل سمعه في هذا كلاماً، ولا يسمع من نصيح ملاماً»<sup>(١)</sup>.

فالتعصب للأسلاف من الآباء والأجداد والعلماء دفع ويدفع لرد الحق، وعدم قبوله، مع أنه كان من الواجب عليهم أن ينبذوا التعصب، وأن يلتمسوا الحق من معدنه.

والمعيار أن يكون الإنسان مع الدليل في جميع موارد ومصادره لا يثنيه عنه شيء ولا يحول بينه وبينه حائل<sup>(٢)</sup>.

والواجب على العقلاء أن ينظروا ما مع الرسل، ويقارنوا بينه وبين ما عليه آباؤهم، ليتضح لهم الحق من الباطل، أما إغلاق الباب على أنفسهم، يقولون: ما نقبل إلا ما عليه آباؤنا، ولا نقبل ما يخالفه، فهذا ليس من شأن العقلاء فضلاً عن الذين يريدون النجاة لأنفسهم<sup>(٣)</sup>.

وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعتة ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ولا يخص أحداً بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله ورسوله<sup>(٤)</sup>.

(١) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٦٠).

(٢) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٩١).

(٣) «شرح مسائل الجاهلية»، للشيخ صالح الفوزان، (ص: ٦٤).

(٤) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١١/٥١٢).

واتباع الحق والبعد عن التعصب من صفات الرعيل الأول، قال ابن القيم واصفاً حالهم: «زاهدين في التعصب للرجال، واقفين مع الحجة والاستدلال، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه، إذا بدا لهم الدليل بأخذته طاروا إليه زرافات ووحداناً، وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا إليه ولا يسألونه عما قال برهاناً، ونصوصه أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها قول أحد من الناس، أو يعارضوها برأي أو قياس»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن رجب: «كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيراً ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم»<sup>(٢)</sup>.

والواجب على المسلم أن يوطن نفسه على الإنصاف وعدم التعصب لا لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء<sup>(٣)</sup>.

وعليه أيضاً: أن يتبع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، وليس له تركه لقول أحد، قال الشافعي: «أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»<sup>(٤)</sup>.

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (١/ ٥ - ٦).

(٢) «الفرق بين النصيحة والتعيير»، لابن رجب، (ص: ٨).

(٣) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ).

(٤) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (١/ ٦).

والرجوع إلى الحق يوجب لصاحبه من الجلالة والنبالة وحُسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والإضرار عليه والاستصغار لشأنه<sup>(١)</sup>.

والخط والنقص في التصميم على الباطل<sup>(٢)</sup>.

### علاج التعصب:

أولاً: إخلاص النية، والتجرد في الوصول إلى الحق والعمل به.

ثانياً: تجنب الأسباب المؤدية للتعصب: قال الشوكاني: «إن أصيب بأحد أسباب التعصب من حيث لا يشعر فقد وقع في محنة، فإن عرفها فليجتنبها كما يجتنب العليل ما ورد عليه من الأمور التي كانت سبباً لوقوعه في المرض»<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: سؤال أهل العلم المنصفين والرجوع إليهم: قال الشوكاني: «فليسأل أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب، فإنه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفاً، وأقرب نفعاً، وأنجع برأماً يجده العليل عند الأطباء»<sup>(٤)</sup>.

رابعاً: قيام العلماء المنصفين بواجب البيان والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: قال الشوكاني: «وكل قائم بحجة الله إذا بينها للناس

(١) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٨٩).

(٢) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٩٠).

(٣) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٩١).

(٤) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٩١).

كما أمره الله، وصدع بالحق، وضرب بالبدعة في وجه صاحبها، وألقم المعتصب حجراً، وأوضح له ما شرعه الله لعباده، وأنه في تمسكه بمحض الرأي، فإن قبل منه ظفر بما وعده رسول الله ﷺ من الأجر في حديث: «لأن يهدي الله بك رجلاً»<sup>(١)</sup>.

وإن لم يقبل منه كان قد فعل ما وجب الله عليه وخلص نفسه من كتم العلم الذي أمره الله بإفشائه، وخرج من ورطة أن يكون من الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى»<sup>(٢)</sup>.

خامساً: الابتعاد عن الأساليب المنفّرة، وذلك بالألا يأتي الناس بغتة ويصك وجهوهم مفاجئة ومجاهرة، وينعى عليهم ما هم فيه نعيّاً صراحاً، ويطلب منهم مفارقة ما ألفوه طلباً مضيئاً، ويقتضيه اقتضاءً حثيثاً<sup>(٣)</sup>.

وليتحفّظ من النكد الذي يحرك داعية الضلال، وليتحقّق أن مهيج داعية الإصرار بالعناد والتعصب معين على الإصرار على البدعة ومطالب بعهدته اعانته في القيامة<sup>(٤)</sup>.

سادساً: العدل والإنصاف عند عرض حجج المخالفين، وعدم غمطهم حقهم، فذلك أدعى لقبولهم للحق، ونبذهم للتعصب.

سابعاً: الاطلاع على الخلاف الفقهي، فأكثر المصارعات التي تحدث سببها أن أحد الأطراف أو أغلبها لا يكون عالماً بأن القضية خلافية.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٤٢).

(٣) «أدب الطلب»، للشوكاني، (ص: ٦٦).

(٤) «الاقتصاد في الاعتقاد»، للغزالي، (ص: ١٥).

ثامناً: تعميق ثقافة الاحترام وفقه الاختلاف، ودراسة سيرة الفقهاء القدماء والمعاصرين الذين اختلفوا في الرأي مع بعضهم.

تاسعاً: قيام المؤسسات العلمية والإعلامية بدورها الإيجابي في الحث على الانقياد للحق ونبذ التعصب.

## المبحث الثامن التقليد

### تعريف التقليد:

التقليد لغة: التعلّق واللزوم والمحاكاة: و«التقليد» مصدر «قلد»<sup>(١)</sup> يقلد، تقليداً، فهو مقلد، والمفعول مقلد<sup>(٢)</sup>.

التقليد اصطلاحاً: «التقليد قول بلا حجة»<sup>(٣)</sup>.

وهو «العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة»<sup>(٤)</sup>.

وقيل هو: «التقليد قبول القول بغير دليل»<sup>(٥)</sup>.

### أقسام التقليد:

قسّم العلماء التقليد إلى عدة أقسام بناء على عدة اعتبارات. فقد قسّموه باعتبار العموم والخصوص إلى قسمين، ومن قسّمه إلى ذلك ابن عثيمين<sup>(٦)</sup>:

الأول: العام: وهو أن يلتزم مذهباً معيناً يأخذ برخصه وعزائمه في جميع أمور دينه.

(١) «المطلع على ألفاظ المنع»، لشمس الدين البعلبي، (ص: ٢٤٣).

(٢) «معجم اللغة العربية المعاصرة»، لأحمد مختار عبد الحميد، وآخرين (٣/ ١٨٥٠).

(٣) «المستصفى»، للغزالي، (ص: ٣٧٠).

(٤) «الإحكام في أصول الأحكام»، للآمدي (٤/ ٢٢١).

(٥) «المسودة في أصول الفقه»، لابن تيمية، (ص: ٤٦٢).

(٦) «الأصول من علم الأصول»، لابن عثيمين، (ص: ٨٨).

الثاني: الخاص: وهو أن يأخذ بقول معين في قضية معينة.

فالقسم الأول: اختلف العلماء فيه، فمنهم من حكى وجوبه لتعذر الاجتهاد في المتأخرين، ومنهم من حكى تحريمه لما فيه من الالتزام المطلق لاتباع غير النبي ﷺ.

وأما القسم الثاني: فجائز إذا عجز عن معرفة الحق بالاجتهاد، سواء عجز عجزاً حقيقياً، أو استطاع ذلك مع المشقة العظيمة<sup>(١)</sup>.

وقسموه باعتبار الجواز والمنع إلى ثلاثة أقسام، ومن قسمه إلى ذلك ابن القيم، فقد قال: «تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى: ما يحرم القول فيه والإفتاء به، وإلى ما يجب المصير إليه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب»<sup>(٢)</sup>.

القسم الأول: المحرم: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «ما يحرم القول فيه والإفتاء به»<sup>(٣)</sup>، وهو الغالب الأعم، وهو الذي جاءت نصوص الكتاب والسنة وكلام الأئمة بدممه والتحذير منه، وله صورة كثيرة، وأنواع متعددة، منها:

١- الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء<sup>(٤)</sup>.

(١) «الأصول من علم الأصول»، لابن عثيمين، (ص: ٨٨).

(٢) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/١٢٩).

(٣) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/١٢٩).

(٤) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/١٢٩).

- ٢- تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله<sup>(١)</sup>.
- ٣- التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد<sup>(٢)</sup>.
- ٤- تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له<sup>(٣)</sup>.

٥- تقليد رجل واحد معين دون غيره من جميع العلماء، أو مذهب معين دون غيره يوافق على كل ما يقول وإن خالف الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة، قال فهذا النوع من التقليد «لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على رجل واحد معين دون غيره من جميع المسلمين»<sup>(٤)</sup>.

٦- تتبع الرخص والتسهيلات في المذاهب وفتاوى المجتهدين، وذلك كأن يجمع المقلد في قضايا ما هو أسهل عليه من المذاهب، أو يقع المقلد في قضية فيها حكم شرعي، فلا يقلد من يترجح تقليده من جهة ولايته، أو قوة دليله، أو تقواه، ولكنه يختار من المفتين في قضاياها من تكون فتواه في القضية المعينة سهلة على المقلد جارية على هواه.

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/ ١٢٩).

(٢) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/ ١٢٩).

(٣) «أضواء البيان»، للشنقيطي (٧/ ٣٠٧).

(٤) «أضواء البيان»، للشنقيطي (٧/ ٣٠٧).

الثاني: الجائز: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «وإلى ما يسوغ من غير إيجاب»<sup>(١)</sup>، وذلك في حالات معينة نص عليها علماء أصول الفقه، ومنها: تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به.

قال الشنقيطي: «التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً في زمن النبي ﷺ، ولا خلاف فيه»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن عبد البر: «العامّة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها... ولم يختلف العلماء أن العامّة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقوله عز وجل: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه»<sup>(٤)</sup>.

الثالث: الواجب: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «وإلى ما يجب المصير إليه»<sup>(٥)</sup>، وذلك في حالات نادرة جداً نص عليها العلماء، ومنها: حالة الضرورة، والعجز وعدم القدرة.

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/١٢٩).

(٢) «أضواء البيان»، للشنقيطي (٧/٣٠٦).

(٣) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٤) «جامع بيان العلم وفضله»، لابن رجب (٢/٩٨٩).

(٥) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٢/١٢٩).

## ذم التقليد:

للتقليد مساوئ كثيرة وعديدة، منها: (١)

١ - إنه سبب من أسباب الانحراف والضلال، قال ابن القيم: «إن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الضلال» (٢).

وقال أيضاً: «دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين:

أحدهما: التقليد للآباء والأسلاف.

والثاني: الخوض فيما لا يدرك غوره ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه، فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخليط.

فأما الطريق الأول فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشبهه والصواب قد يخفى والتقليد سليم، وقد ضل في هذا الطريق خلق كثير وبه هلاك عامة الناس، فإن اليهود والنصارى قلدوا آباءهم وعلماءهم فضلوا، وكذلك أهل الجاهلية (٣).

٢ - إنه سمة من سمات اليهود والنصارى، قال تعالى عنهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤).

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال

(١) «جامع بيان العلم وفضله»، لابن رجب (٢/٩٨٩).

(٢) «أحكام أهل الذمة»، لابن القيم (٢/٩٥٠).

(٣) «تلبس إبليس»، لابن الجوزي، (ص: ٧٤).

(٤) سورة التوبة، آية: ٣١.

لي: «يا عدي بن حاتم: ألق هذا الوثن من عنقك» وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَزْوَاجًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: قلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أزواجاً، قال: «بلى، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه؟» فقلت: بلى، قال: «تلك عبادتهم»<sup>(١)</sup>.

٣ - إنه أصل من أصول أهل الجاهلية، قال محمد بن عبد الوهاب وهو يتحدث عن مسائل الجاهلية: «الرابعة: أن دينهم مبني على أصول أعظمها: التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم»<sup>(٢)</sup>، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَىٰ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾<sup>(٤)</sup>، فهذه الآيات وغيرها تدل «على أن أهل الجاهلية كانوا في ربة التقليد، لا يحكمون لهم رأياً، ولا يشغلون فكراً، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة، وهكذا كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان»<sup>(٥)</sup>.

٤ - إنه سبب من أسباب التشرذم والتمزق والاختلاف، فقد جاء في

(١) «جامع بيان العلم وفضله»، لابن رجب (٢/ ٩٧٥).

(٢) «مسائل الجاهلية»، لابن عبد الوهاب، (ص: ٨).

(٣) سورة الزخرف، آية: ٢٣.

(٤) سورة لقمان، آية: ٢١.

(٥) «فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية»، تقديم وتعليق، محب الدين الخطيب، (ص: ٢٣).

حديث العرياض بن سارية قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً...»<sup>(١)</sup>، قال ابن القيم: «إنما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله، وهم الذين فرّقوا الدين وصيّروا أهله شيعاً، كل فرقة تنصر متبوعها، وتدعو إليه، وتذم من خالفها، ولا يرون العمل بقولهم حتى كأنهم ملّة أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الرد عليهم، ويقولون: كتبهم، وكتبنا وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا»<sup>(٢)</sup>.

٥ - إنه علامة من علامة أهل البدع، قال ابن القيم: «ورضوا لأنفسهم بتقليد أقوال مخالفة للفطرة والعقل والشرع، وظنوها قواطع عقلية، وقدّموها على نصوص الأنبياء، وهي في الحقيقة شبّهات مخالفة للسمع والعقل»<sup>(٣)</sup>.

٦ - إنه سبب من أسباب تسلط أهل الباطل على أهل الحق، قال المعلمي: «فلما انحدر المسلمون إلى هوة التقليد وصار فيهم من يقول: الأصل كلام أصحابنا، ونرد ما خالفه من كتاب وسنة دالت دولة المسلمين واستولى عليهم من لا يقيم للإسلام وزناً وإن تظاهر به لإسكات العامة، ثم كانت المصائب أتخم بها بطن التاريخ من غزو التتار لشرق البلاد وفيهم أتباع مقتدي الأمة وقدوة الأئمة، وغزو الإفرنج للشام ومصر، وقبلها تنصير مسلمي الأندلس، ثم تنفّس الإسلام بحيويته الكامنة،

(١) رواه أبو داود (٢٠١/٤)، والترمذي (٤٤/٥)، وابن ماجه (١٦/١)، وأحمد (٣٦٧/٢٨)، وصححه الألباني.

(٢) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (١٧٣/٢).

(٣) «مدارج السالكين»، لابن القيم (١٨٣/١).

فكان طرد الفرنجة من الشام وشواطئ مصر وغزو الترك لشرق أوروبا وفتح القسطنطينية.

ثم فترت همّة الإسلام بشوّم التقليد، والإعراض عن الكتاب والسنة، حتى كان ما نراه اليوم وقبل اليوم من استيلاء الدهرية الأوروبية على معاقل الإسلام وحصونه ودياره من الهند وأندونيسيا وشواطئ إفريقيا، الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس ومصر والشام والعراق وأطراف الأمبراطورية العثمانية وارتقاء تركيا الحديثة إلى أحضان أوروبا ودهريتها وخلاعتها<sup>(١)</sup>

### أثر التقليد في رد الحق:

التقليد داء قاتل دفع أهل الباطل إلى رد الحق.

وهو حجة جاهلية تمسك بها أهل الباطل منذ القدم في ردهم للحق وعدم قبولهم له، كما حكى الله ذلك في القرآن في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، فتمسك الجهال بالتقليد كان من قديم الدهر<sup>(٣)</sup>.

وهو الداء الذي جعل أهل الباطل يتمادون في رد الحق كما قال الشاطبي: «حتى ردّوا بذلك براهين الرسالة، وحبّة القرآن، ودليل العقل»<sup>(٤)</sup>.

(١) «التنكيل»، للمعلمي (١/ ١٣١ - ١٣٢).

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٣.

(٣) «مفاتيح الغيب»، للرازي (٢٧/ ٦٢٧).

(٤) «الاعتصام»، للشاطبي، (ص: ٨٦٣).

وهو ذريعة شيطانية، ووسيلة طاغوتية استند عليها أهل الباطل في رد الحق، والاستمرار على الباطل، قال الشوكاني: «بهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية بقى المشرك من الجاهلية على شركه، واليهودي على يهوديته، والنصراني على نصرانيته، والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتبدلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية وغيرها، وألفوا ذلك، ومُرّت عليه نفوسهم، وقبلته قلوبهم، وأنسوا إليه»<sup>(١)</sup>.

وهو الحجة التي تذرّع ويتذرّع بها المقلّدة من المسلمين في ردّهم للحق وعدم قبولهم له، قال الشوكاني: «إن هؤلاء المقلّدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ولا حجة واضحة، بل بمجرد قال وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة باطلة، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

واحتجاج أهل الباطل في ردّهم للحق «بتقليدهم لأبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصره ما معهم من الباطل»<sup>(٣)</sup>. بل هذا «شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة

(١) «الدر النفيس»، للشوكاني، (ص: ٢٨ - ٢٩).

(٢) «فتح القدير»، للشوكاني (٤/ ٦٣٢ - ٦٣٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن»، لابن سعدي، (ص: ٧٦٤).

إذا لزمته، لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتم بما أهدى مما وجدتم عليه آباءكم» فلو كنتم ممن يتبع الحق لأتبعتم ما جئتم به فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئتم أهدى مما وجدتموه عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتم به<sup>(١)</sup>

وهذا الداء الذي تذرّع ويتذرّع به أهل الباطل في رد الحق قد جاءت نصوص الشريعة بدمه.

قال ابن تيمية: «قد ذمّ الله تعالى في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذي حرّمه الله ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول، وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان، في سره وعلايته وفي جميع أحواله. وهذا من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(٦٥)</sup> وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٥١)</sup> وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) «بدائع الفوائد»، لابن القيم (٤/١٧٤).

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٣) سورة النور، آية: ٥١.

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾<sup>(٣)</sup>، وقد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس في قريب من أربعين موضعاً من القرآن، وطاعته طاعة لله<sup>(٤)</sup>، فمن أطاع متبوعاً في خلاف الحق فله نصيب من الذم<sup>(٥)</sup>.

### الوسائل المعينة على ترك التقليد:

أولاً: النظر والاستدلال: قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾<sup>(٦)</sup>.

ثانياً: طلب العلم من مظانه الصحيحة، فإِنَّمَا نَشَأُ التَّقْلِيدَ مِنْ شِدَّةِ التَّفْرِيطِ فِي تَعْلَمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمَا إِعْرَاضاً كَلِيئاً يَتَوَارَثُهُ الْأَبْنَاءُ عَنِ الْأَبَاءِ، وَالْأَبَاءُ عَنِ الْأَجْدَادِ<sup>(٧)</sup>، فمن علاج التقليد: الحرص على طلب العلم، ثم العمل به.

ثالثاً: اتباع القدوة الحسنة: قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٢) سورة النور، آية: ٦٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٤) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٩/٢٦١ - ٢٦٠).

(٥) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٩/٢٦٢).

(٦) سورة ص، آية: ٢٩.

(٧) «أضواء البيان، للشنقيطي» (٧/٣٥٤).

فِيهِدْنَهُمْ أَقْتَدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾<sup>(١)</sup>، وهم الأنبياء والرسل، والمقتفون لأثارهم، والمتبعون لهم إلى يوم الدين.

رابعاً: استشعار المقلد أنه على غير هدى، وأنه سيتحمل تبعه تقليده، ولا يدفع المتبعون عنه شيئاً، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأُزِرْ ۗ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾<sup>(٢)</sup>.

خامساً: معرفة أهمية معرفة الدليل، وأن طالب العلم يجب عليه أن يتلقى المسائل بدلائلها، وهذا هو الذي ينجيه عند الله سبحانه وتعالى، لأن الله سيقول له يوم القيامة: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، ولن يقول: ماذا أجبتم فلان الفلاني؟

سادساً: التربية على الاستقلالية والتحري، والبحث عن الدليل.

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٥.

(٣) سورة القصص، آية: ٦٥.

## المبحث التاسع

### تقديم العقل على النقل

#### تعريف العقل:

العقل لغة: الحبس والمنع: وهو مصدر عقل، يعقل، عقلاً، ومعقولاً<sup>(١)</sup>. قال ابن فارس: «العين والقاف واللام» أصل واحد يدل على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة، والعقل: الحبس عن ذميم القول والفعل<sup>(٢)</sup>. العقل اصطلاحاً: تعددت أقوال العلماء وتنوّعت في تعريف العقل، والتعريف المختار في تعريفه: أنه يشتمل على أربعة معانٍ<sup>(٣)</sup>: أحدها: الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم.

الثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب.

الرابع: قمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة.

وقد جمع هذه المعاني ابن تيمية في قوله: «هو علم، أو عمل بالعلم، وغيره تقتضي ذلك»<sup>(٤)</sup>.

(١) «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية»، للجوهري (١٧٦٩/٥).

(٢) «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٦٩ / ٤).

(٣) «الأذكياء»، لابن الجوزي، (ص: ١٠ - ١١)، و«إحياء علوم الدين»، للغزالي (٨٦ / ١ - ٨٥).

(٤) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٣٠٢ / ١٠).

تعريف النقل: هي نصوص الكتاب والسنة النبوية.

### تفاوت العقول:

الناس متفاوتون في العقول، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهل للرجل الحازم من إحداكن»<sup>(١)</sup> دلّ الحديث بمنطوقه على النقصان، وبمفهومه على الزيادة.

والعقل مما يقبل الزيادة والنقصان<sup>(٢)</sup>.

«ومنازل الخلق فيه متفاوتة أعظم تفاوت، وأبصارهم مختلفة، وليس العقل بأسره في واحد من الناس، أو طائفة معينة، حتى يكون تقديم عقولهم على ما جاءت به الرسل، بل لكل طائفة معقول مخالف معقول الأخرى»<sup>(٣)</sup>.

والناس كما أنهم متفاوتون في قوى الأبدان فإنهم متفاوتون في قوى الأذهان أعظم تفاوت<sup>(٤)</sup>.

والتفاوت في العقل ليس محصوراً من شخص إلى آخر، أو من فئة إلى فئة بل التفاوت في العقل يكون للإنسان نفسه، ففي فترة ما يكون أعقل من فترة أخرى، قال الشاطبي: «الإنسان - وإن زعم في الأمر أنه

(١) رواه البخاري.

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٠/٧٢١).

(٣) «الصواعق المرسله»، لابن القيم (٣/٨١٧).

(٤) «الصواعق المرسله»، لابن القيم (٢/٥٠٧).

أدرکه و قتله علماً- لا يأتي عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك، كل أحد يشاهد ذلك من نفسه عياناً، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم<sup>(١)</sup>.

### مكانة العقل عند أهل الحق:

للعقل عند أهل الحق مكانته اللائقة به، وهم في ذلك وسط بين طرفين<sup>(٢)</sup>:

الطرف الأول: من جعل العقل أصلاً كلياً أولياً، يستغني بنفسه عن الشرع.

الطرف الثاني: من أعرض عن العقل، وذمه وعابه، وخالف صريحه، وقدح في الدلائل العقلية مطلقاً.

والوسط في ذلك: أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، لذلك كانت سلامة العقل شرطاً في التكليف، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، وقد أمر الله باستماع القرآن وتدبره بالعقول، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) «الاعتصام، للشاطبي»، (ص: ٨٣٥ - ٨٣٦).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/٣٣٨).

(٣) سورة النساء، آية: ٨٢.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٦٨.

والعقل هو المدرك لحجة الله على خلقه<sup>(١)</sup>، ولكنه لا يستقل بنفسه، بل هو محتاج إلى الشرع الذي عرفناه ما لم يكن لعقولنا سبيل إلى استقلالها بإدراكه أبداً، إذ العقل غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها<sup>(٢)</sup>.

### أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها:

قسّم العلماء العلوم من حيث إدراك العقل لها إلى ثلاثة أقسام، ومن قسّمها إلى ذلك ابن تيمية<sup>(٣)</sup>:

الأول: ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية، وذلك كثبوت النبوة، وصدق الخبر، وأحسن هذه الأدلة ما بيّنه القرآن، وأرشد إليه.

الثاني: ما لا يعلم إلا بالأدلة النقلية، وذلك كتفاصيل الأمور الإلهية، وتفاصيل العبادات، وذلك إنما يكون بطريق خبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المجرد.

الثالث: ما يعلم بالسمع والعقل، وذلك مثل كون رؤية الله ممكنة أو ممتنعة.

(١) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ٣٣٨ - ٣٣٩)، و«الصواعق المرسلّة»، لابن القيم (٤٥٨/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ٣٣٩)، و«الصواعق المرسلّة»، لابن القيم (٤٥٨/٢ - ٤٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٣/ ١٣٧ - ١٣٩).

### أصناف الناس من حيث التعامل مع العقل والنقل:

من خلال النظر والتأمل في تعامل الناس مع العقل والنقل في الماضي والحاضر يمكننا أن نصنف الناس إلى ثمانية أصناف:

الصنف الأول: الذين مجّدوا العقل وأعرضوا عن النص «كالمعتزلة».

الصنف الثاني: المغرورون بالعقل «الفلاسفة».

الصنف الثالث: السائرون على خطى الانحراف والضلال

«كالعصرانيين أو التنويريين».

الصنف الرابع: المنكرون لحقائق العقل «السنسطيون».

الصنف الخامس: أهل الخرافة الذين ألغوا العقل ومجّدوا الغيبات.

الصنف السادس: الماديون الذين مجّدوا العقل وألغوا الغيبات

«كالمجتمع الغربي».

الصنف السابع: أهل الشقاق والنفاق الذين مجّدوا العقل وطعنوا في

السُّنَّة النبوية «كالرافضة».

الصنف الثامن: أهل الإسلام الحق الذين آمنوا بالنقل واحترموا العقل.

### دعوى تعارض العقل مع النقل:

وضع أهل الباطل الذين قدّموا العقل على النقل لهم قانوناً، وافتروا

فرية على العقل والنقل، وهي: دعوى التعارض بينهما، وقد لخص ابن

تيمية هذه الدعوى<sup>(١)</sup> في قوله: «قول القائل: إذا تعارضت الأدلة السمعية

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٤ / ١).

والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، أو نحو ذلك من العبارات.

فإما أن يجمع بينهما، وهو محال، لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعاً.

وإما أن يقدم السمع، وهو محال، لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول، وإما أن يفوض.

وأما إذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما، ولم يمتنع ارتفاعهما.

### الرد على دعوى تعارض العقل والنقل:

انبرى العلماء للرد على دعوى تعارض العقل والنقل، ومن أبرز العلماء الذين انبروا للرد عليها ابن تيمية في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل» فقد رد عليها بأكثر من أربعة وأربعين وجهاً<sup>(١)</sup>.

وأيضاً رد عليها تلميذه ابن القيم في كتابه: «الصواعق المرسله» بأكثر من مائتين وأربعين وجهاً<sup>(٢)</sup>.

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/٨٦) وما بعدها.

(٢) «الصواعق المرسله»، لابن القيم (٣/٧٩٦) وما بعدها.

ومن الردود التي رد بها ابن تيمية<sup>(١)</sup> عليها ما يلي:

أولاً: نقض الدعوى التي ادعوها، والقاعدة التي ساروا عليها، وهي: التعارض بين العقل والنقل، ذلك أنهم ذكروا أن الأدلة لا تخرج عن ثلاثة أحوال:

١- أن يكون الدليلان كلاهما قطعيين، فهنا لا نسلم بالتعارض، لأنه غير ممكن.

٢- أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، فيُقدّم القطعي.

٣- أن يكون كلاهما ظني الثبوت، فيقدّم الراجح منهما، قال ابن تيمية في هذه المسألة: «فعلم أن تقديم العقلي مطلقاً خطأ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقلياً خطأ»<sup>(٢)</sup>، فلا يسلم بكلامهم أن الأمر لا يخرج من الأمور الأربعة، فهناك حالة خامسة، وهي: تقديم العقلي تارة، والنقلي تارة، فأيهما كان قطعياً قُدِّم، وإن كانا ظنيين قُدِّم الراجح منهما<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: أن يقال: إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع، لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل، فمهمة العقل هي تصديق النص، وكونه مزكياً للنص لا يلزم منه أنه أعلى مرتبة منه، أو مقدّم عليه، وقد شبه ابن تيمية هذا الأمر بأمر بليغ، حيث شبه النص

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/ ٨٦) وما بعدها.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/ ٨٧).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/ ٨٧).

بالطبيب الماهر، والعقل بأناس شهدوا لهذا الطبيب بالمهارة، وحصل نزاع بينهم، فهل تقدّم أقوال الشهود على الطبيب بحجة أنهم هم الذين زكّوه؟ وهل رد أقوالهم قدح في هذا الطبيب؟<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: أن يقال: تقديم العقل على الشرع ممتنع متناقض، أما العكس فهو ممكن مؤتلف، فوجب الثاني دون الأول، لأن كون الشيء معلوماً بالعقل أو غير معلوم، ليس صفة لازمة له، بل هو من الأمور النسبية، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله. وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر.

والمسائل التي يقال إنه تعارض فيها العقل والشرع جميعها مما اضطرب فيها العقلاء ولم يتفقوا فيها.

فلو قيل بتقديم العقل، لوجب أن يُحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته، ولا اتفاق للناس عليه.

وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لازمة له، لا تختلف باختلاف أحوال الناس.<sup>(٢)</sup>

رابعاً: أن يقال: كون الدليل عقلياً أو سمعياً ليس هو صفة تقتضي مدحاً ولا ذمماً، ولا صحة ولا فساداً، بل ذلك يبيّن الطريق الذي علم به، وإما كونه شرعياً فلا يقابل بكونه عقلياً، إنما يقابل بكونه بدعياً، إذ البدعة تقابل الشريعة، وما خالف الشريعة فهو باطل.

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/١٣٩).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/١٤٦).

والشرعي قد يكون سمعي وقد يكون عقلي، فالدليل الشرعي هو ما أثبتته الشرع وأباحه وأذن فيه، سواء كان يعرف بالعقل أو بالنص<sup>(١)</sup>.

خامساً: أن يقال: معارضة أقوال الأنبياء بآراء الرجال، وتقديم ذلك عليها هو فعل المكذبين للرسول، كما قال الشهرستاني في أول كتابه المعروف بالملل والنحل ما معناه: أصل كل شر هو من معارضة النص بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع<sup>(٢)</sup>.

سادساً: المعارضون للكتاب والسنة بآرائهم لا يمكن أن يقولوا: إن كل واحد من الدليلين المتعارضين يقيني، وقد تناقضا على وجه لا يمكن الجمع بينهما.

فهذا لا يقوله عاقل، ولكن نهاية ما يقولونه، أن الأدلة الشرعية لا تفيد اليقين، والأدلة العقلية هي التي تفيد اليقين.

ويلزم من هذا القول الإلحاد والنفاق، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ والإقبال على ما يناقض ذلك<sup>(٣)</sup>.

سابعاً: أن من لوازم قولهم: أن الرسول ﷺ ليس له فيما أخبر عن الله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، علم ولا هدى ولا كتاب منير، فلا يستفاد منه علم، ولا هدى يعرف به الحق من الباطل، فلا يكون الرسول ﷺ أخرجهم من الظلمات إلى النور، ولا هداهم

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/١٩٨).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٥/٢٠٤).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٦/٣).

إلى صراط العزيز الحميد، وهذا معلوم بالاضطرار في دين الإسلام بطلانه<sup>(١)</sup>.

ثامناً: أن قولهم متناقض، والمتناقض فاسد، فهم يوجبون التأويل في بعض السمعيات دون بعض، فيقال لهم: ما الفرق بين ما جوزتم تأويله فصرتموه عن معناه الظاهر البين، وبين ما أقرتموه؟<sup>(٢)</sup>.

### موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح:

العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح، بل العقل الصريح يشهد للنقل الصحيح ويؤيده، قال ابن تيمية: «ما جاء عن النبي ﷺ كله حق يصدق بعضه بعضاً، وهو موافق لفطرة الخلائق، وما جعل فيهم من العقول الصريحة، والقصود الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

وقال أيضاً: «العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضاً»<sup>(٤)</sup>.

وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين:

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٥/٣٥٧ - ٣٥٨).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٥/٣٤٣).

(٣) «الرسالة العرشية»، لابن تيمية، (ص: ٣٥).

(٤) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٧/٦٦٥).

إما أن يكون الخبر كذباً عليهم وإما أن يكون ذلك العقل فاسداً، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح»<sup>(١)</sup>.

وإنما يظن تعارضها: من صدق بباطل من النقول، أو فهم منه ما لم يدل عليه، أو اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات»<sup>(٢)</sup>.

### عواقب تقديم العقل على النقل:

لتقديم العقل على النقل آثار سيئة، وعواقب وخيمة، ومن ذلك:

أولاً: مضاهاة إبليس، فهو أول من قدّم العقل على النقل، ولم ينقد للأمر بالسجود لآدم عليه السلام، قال تعالى حاكياً عنه أنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(٣)</sup>، فمن قدّم العقل على النقل، وعارض به الوحي فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: مشابهة الكفار: فمن قدّم العقل على النقل فقد تشبّه بالكفار الذين قدّموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في مواضع كثيرة، ومن ذلك: النبوة: قال تعالى حاكياً عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) «الروح، لابن القيم»، (ص: ٦٢).

(٢) «الرسالة العرشية، لابن تيمية»، (ص: ٣٥).

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٢.

(٤) «شرح الطحاوية»، لأبي العز الحنفي، (ص: ٢٠٧).

(٥) سورة الزخرف، آية: ٣١.

وقدموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في القدر، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾<sup>(١)</sup>.

وقدموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في تحريم الربا، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: التكذيب بالرسول ﷺ وتخطئته، وإبطال دلالة السمع، وسد طريق العلم بما أخبر به الأنبياء والمرسلون، بل تكذيب الكتاب، وما أرسل الله به رسله، ومنع الاستدلال بخبر الرسول ﷺ على شيء، لأنه من علم أن الرسول ﷺ صادق، وما أخبر به ثابت، امتنع عن تقديم العقل على خبره<sup>(٤)</sup>.

رابعاً: عدم الاستفادة من الوحي شيئاً، لأن المقدمين للعقل على النقل المعارضين للوحي به لا يرجعون إلى الوحي في المطالب الإلهية، فصار وجوده عندهم كالعدم، بل أضر، لأنهم لم ينتفعوا منه شيئاً، واحتاجوا أن يدفعوا ما جاء به إما عن طريق التكذيب، أو التعريض، أو التأويل<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الأنعام، آية: ١٤٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٣) «الصواعق المرسله»، لابن القيم (٣/ ٨٩٤ - ٨٩٧).

(٤) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، لابن تيمية (١/ ١٤٠).

(٥) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/ ١٣٦).

خامساً: فساد العالم وخرابه: ف«كل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحکم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحکم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد»<sup>(١)</sup>.

سادساً: القول على الله بغير علم: لأن المقدمين للعقل على النقل، والمعارضين الوحي به ليس عندهم علم ولا هدى ولا كتاب مبين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى عن المتقادين للوحي: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾<sup>(٣)</sup> فالذين يقدمون العقل على النقل، ويعارضون الوحي به ليسوا من أهل العلم.

ومن قدّم العقل على النقل وعارض الوحي به قال الله بغير علم، قال ابن قتيبة: «تدبرت مقالة أهل الكلام... فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل، ومعاني الكتاب والحديث... ولوردوا المشكل منهما، إلى أهل العلم بهما، وضح لهم المنهج، واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الاتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات»<sup>(٤)</sup>.

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (١/ ٥٤ - ٥٥).

(٢) سورة الحج، آية: ٨.

(٣) سورة سبأ، آية: ٦.

(٤) «تأويل مختلف الحديث»، لابن قتيبة، (ص: ٦١).

سابعاً: التفرّق والاختلاف والتنازع: فأكثر الناس اختلافاً المقدمين للعقل على النقل، المعارضين للوحي بالعقل، فلا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين، لأن العقول التي حكموها في الوحي متفاوتة متباينة، فقد يعلم زيد بعقله ما لا يعلمه بكر.

وكلّما ابتعدوا عن الوحي كلما ازدادوا تنازعاً واختلافاً، قال ابن تيمية: «كل من كان عن السُّنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم»<sup>(١)</sup>.

ثامناً: الشك والحيرة والضلال والكفر والزندقة: فقد أقر بذلك المقدمين للعقل على النقل المعارضين للوحي به، فقد أنشد أحدهم:

نهاية إقدام العقول عقال

وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسوننا

وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال أيضاً: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن» ثم قال: «ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»<sup>(٢)</sup>.

(١) «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (١/١٥٧).

(٢) «شرح الطحاوية»، لأبي العز الحنفي، (ص: ٢٠٩ - ٢٠٨).

وأُنشد الآخر:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

على ذقن أو قارعا سن نادماً<sup>(١)</sup>

وغير هذين كثيرون ممن سلك هذا المسلك آل أمرهم إلى الحيرة والشك والضلال<sup>(٢)</sup>.

وغير ذلك من العواقب الوخيمة لتقديم العقل على النقل.

(١) «إيثار الحق على الخلق»، للقاسمي، (ص: ١٤٠).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٧٢/٤ - ٧٣).

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	..... مقدمة
١٦	المبحث الأول: الجهل
١٦	..... تعريف الجهل
١٦	..... أقسام الجهل
١٧	..... داء الجهل
٢٤	..... أسباب الجهل المؤدّي لرد الحق
٢٧	المبحث الثاني: الهوى
٢٧	..... تعريف الهوى
٢٧	..... حكم اتباع الهوى
٣٠	..... ذم اتباع الهوى
٣٢	..... أثر اتباع الهوى في رد الحق
٣٤	..... الوسائل المعينة على التخلص من اتباع الهوى
٣٨	المبحث الثالث: الحسد
٣٨	..... تعريف الحسد
٣٨	..... الفرق بين الحسد والغبطة

٣٩	.....	بواعث الحسد وأسبابه
٤٢	.....	مساوئ الحسد
٤٥	.....	أثر الحسد في رد الحق
٤٨	.....	دواء الحسد
٥١		المبحث الرابع: الكبر
٥١	.....	تعريف الكبر
٥١	.....	حكم الكبر
٥٣	.....	بواعث الكبر وأسبابه
٥٤	.....	أثر الكبر في رد الحق
٥٨	.....	عقوبات الكبر
٦١	.....	وسائل التخلص من الكبر وعلاجه
٦٤		المبحث الخامس: الظلم
٦٤	.....	تعريف الظلم
٦٥	.....	حكم الظلم
٦٥	.....	ذم الظلم والتحذير منه
٦٩	.....	أثر الظلم في رد الحق
٧٢	.....	وجوب التوبة من الظلم

٧٥	المبحث السادس: المداهنة
٧٥	تعريف المداهنة .....
٧٥	الفرق بين المداراة والمداهنة .....
٧٧	بواعث المداهنة وأسبابها .....
٧٨	صور المداهنة .....
٧٨	ذم المداهنة .....
٨٠	عواقب المداهنة وآثارها .....
٨٤	وجوب بيان الحق .....
٨٥	وسائل الوقاية من المداهنة .....
٨٧	المبحث السابع: التعصّب
٨٧	تعريف التعصّب .....
٨٨	أشكال التعصّب .....
٨٨	أسباب التعصّب .....
٩١	أقسام التعصّب من حيث المدح والذم .....
٩٢	ذم التعصّب .....
٩٧	أثر التعصّب في رد الحق .....
١٠٠	علاج التعصّب .....

١٠٣	المبحث الثامن: التقليد
١٠٣	تعريف التقليد .....
١٠٣	أقسام التقليد .....
١٠٧	ذم التقليد .....
١١٠	أثر التقليد في رد الحق .....
١١٣	الوسائل المعينة على ترك التقليد .....
١١٥	المبحث التاسع: تقديم العقل على النقل
١١٥	تعريف العقل .....
١١٦	تفاوت العقول .....
١١٧	مكانة العقل عند أهل الحق .....
١١٨	أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها .....
١١٩	أصناف الناس من حيث التعامل مع العقل والنقل .....
١١٩	دعوى تعارض العقل مع النقل .....
١٢٠	الرد على دعوى تعارض العقل والنقل .....
١٢٤	موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح .....
١٢٥	عواقب تقديم العقل على النقل .....